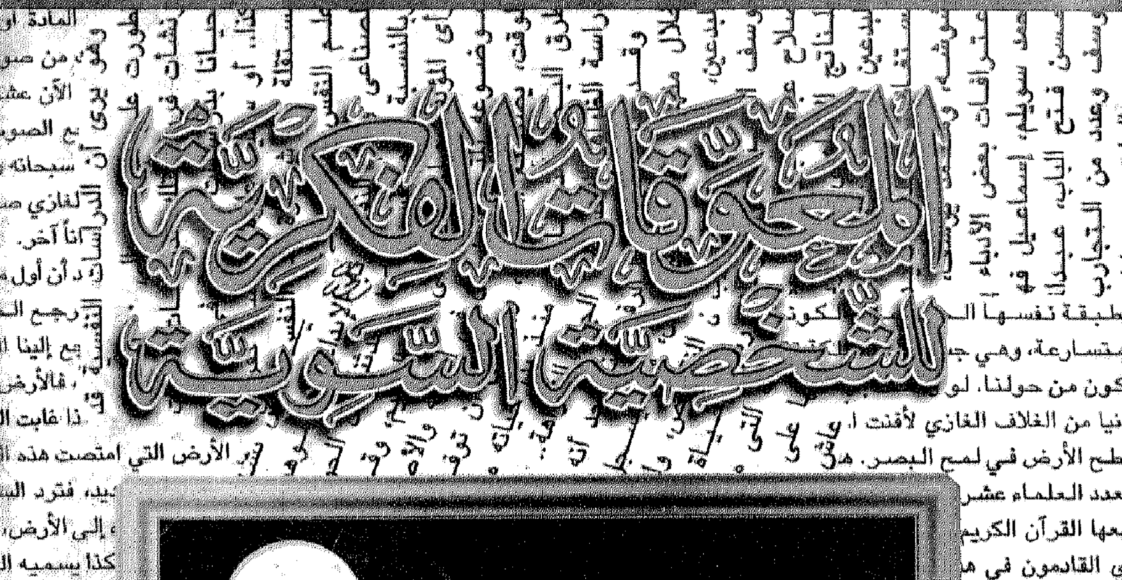


المعوقات الفكرية للشخصية السوية

طيبة أحمد الإبراهيم

أهداءات ٢٠٠٤

السيدة / طيبة احمد الابراهيم
الكويت

المعوقات الفكرية للشخصية السوية

تأليـــف
طيبة أحمد الابراهيم

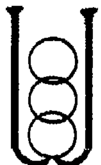
الناشر - مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتى - القاهرة

تليفون : ٧٩٤٨٤٠١ - ٧٩٤٨٤٠٢ - ٧٩٤٣٣٤٧ - ٧٩٤٣٥١٤ - فاكس : ٧٩٤٢٢٠٦

المطابع والإدارة والتوزيع - طريق المعادى الزراعى دار السلام

تليفون : ٥٢٤٣٢٦١ - ٥٢٤٣٢٥٩ - فاكس : ٥٢٤٣٢٦٠



المعوقات الفكرية للشخصية السوية

- تمهيــــد -

من خصائص فكر الإنسان :

ـــــــــــــــــــ : ليس الغرض من الحديث عن الفكر الإنساني من أجل البحث في طبيعته الفيزيائية ، أو ديناميكيته الرياضية ، وما تؤدي إليه هذه الطبيعة من انعكاسات على أفعاله ، كما جرت العادة ، ومن ثم التساؤل فيما إذا كان مخيرا أو مسيرا في أعماله ، أو إن كان مسئولا مسئولية جزئيه عن خيارته أو مجبور إجبارا كليا لما تفرضه عليه أجهزته من أداء لوظائفها ، لأن الحديث عن مثل هذه الأمور سيؤدي إلى التساؤل عما إذا كان ثمة غير الإنسان مسئولا عنه ومن ثم هل ثمة من يعبأ بالإنسان غير الإنسان نفسه ؟ وأخيرا هل هو في خلقته مثل خلقة الديدان والعلق أو ما تدنى دون ذلك من دقائق الأحياء ليس له خيار في نفسه عن نفسه .

وأنه في ذلك مثل أي مادة حية من نبات وحيوان لا يميزه عنها سوى تطور أجهزته الفكرية ، وأنه مثلها ليس له القدرة على التدخل في خلقته وبالتالي ليس له القدرة على تحديد خياراته ، ومن بعد التوصل إلى أن ثمة قدرة خارقة تتدبر أمره ، يعجز تصوره الإنساني عن إدراكها هي التي تجعل الإنسان إنسان .

او هل هو خلق بالصدفة ومن ثم ينتهي بالصدفة ايضا للبلى الذي يصيب أجهزته .

ليس هذا هو الغرض من هذا الطرح ، فهذه الموضوعات قد اشبعت بحثا على مدى طويل من الزمن ، وعلى الرغم من ذلك لم يصلِ الباحثون والفلاسفة إلى نتيجة مرضية في حسمها ، فلا تزال تلك الأمور في مدّ وجزر ، ولذلك فإن أي كلام عنها سوف يقف بنا عند نفس النتيجة .

وإنما أردت فحصا لبعض من فعاليات الفكر الإنساني ، فيما هو في ظاهر قدرة الإنسان نفسه على تصريف أموره ،نريد التحدث عما لذلك الفكر من طبيعة حياتيه في مكنة الإنسان تطبيقها على فعله الآني أو أن يكون لها تأثير على مستقبله الحياتي ، فيكون فيها مسئولا عن تصرفاته مسئولية كاملة ومن ثم ما تلزمه تلك المسئولية من واجب الالتزام بالتقيد بالأخلاق الجماعية المتعارف عليها مما يؤدي إلى غرض حماية نفسه من غيره ، والعكس صحيح أيضا ، لإدراكه أن هذا هو المنفذ الوحيد لإطالة بقائه بقاء صحيا وسط مجتمع من المفترض أن يتعامل معه بالمثل ، ويتعين أن يكون ذلك بدافع من الاقتناع بجدوى مسئولية ذلك الالتزام ، وليس بغرض مقايضة يدفعه إليها ما يهدد به من العقاب أو ما يغريه من طلب

لثواب ميتا فيزيقي مؤجلا إلى مدى ليس في يقينه علم به .

وهذه المسئولية التي نحمّلها للإنسان عما يأتيه من افعال ، لا يلغي الاعتراف بأن نسبة كبيرة جدا من افعاله تتأثر بعناصر خلقته الطبيعية الناجمة عن قدرة أجهزته الجسدية على أداء لوظائفها بصورة جيده، أو رديئة ، فبطبيعة الحال فما تؤديه الأجهزة الجيدة من وظائف متكاملة ينجم عنها تبصر الإنسان بما يجب أن يأتيه من جيد الأفعال ، وأن اختل ميزان هذه الأجهزة ، اختل تبعا لذلك نظام الوظائف فيصاب السلوك الإنساني ما يصيبه من اختلال .

ودليلنا على ما للأجهزة الجسدية من تأثير مستقل عن مؤثرات البيئة المحيطة به ، أننا قد نجد عددا من الأشقاء في البيئة الواحدة فيهم المجرم والسافل ولا تمنع من وجود العاقل أو الحكيم .

إذن كلما كانت الأجهزة العصبية متينة كان قوام السلوك أكثر رقيا .

وهذا يقود إلى الاستنتاج أن المجرم ليس مجرما بإرادته الحرة المطلقة ، والعاقل ليس هو من يضبط تصرفه الحكيم بمعزل تام عما لأجهزته العصبية من متانة وقوة ، فلا فضل للآخر إلا بمقياس ، ولا وزر على الأول إلا بمقياس :

ولكيلا يظلم الإنسان إنسانا آخر، نقاد إلى القول بما يتوجب من معالجة المجرمين دوائيا وإن كانوا ظاهري الصحة، بدلا من الحكم عليهم بالعقاب المجرد.

وبما اننا قد توصلنا إلى الاعتراف أن الإنسان لا يملك الحرية المطلقة لما يصيبه، أو حتى ما يفرضه من سلوك على نفسه، وعرفنا أن عوامل عديدة مؤثرة فيه من داخل جسده، وأحيانا من الطبيعة المحيطة به أو من الآخرين، وغير ذلك من العوامل مما لا يعد ولا يحصى تؤثر فيه وتحد من قدرته على تصريف الكثير من الأمور على نحو ما يؤمل منه، وفي أحيانا كثيرة، أنه قد يوجد من هو مُحكم الذكاء في بيئة نزقه فيستقل ذكاؤه في المنحى الذي تدفعه إليه بيئته السيئة.

ولذا فلابد من الحرص على عمل توافق بين القدرة العالية لفعاليات الجسد ومؤثرات البيئة من حوله، ولكن هل في قدرة الإنسان أن يعمل ما أُشير إليه ؟ بطبيعة الحال فهذا بادي الاستحالة لعدم فهمه لآليته الفكرية تمام الفهم.

إذن نعود إلى ما نرمي إليه من هذا الطرح لنرى قيمة الإنسان الحقة تجاه نفسه وتجاه ما يدركه من كون، بهدف معرفة ما في قدرة هذا الإنسان أن يفعل

فعلا وهو بكامل حريته ، ومن جراء نظرة سوية للأمور نراها من إنسان معترف في سويته اعترافا علميا ومتعارف عليه اجتماعيا.

ومع كل هذا لا يسعنا إلا أن نأخذ خزعة صغيرة متناثرة من القدرات الفكرية للإنسان ، التي لا يربطها سياق محكم الحلقات ، وذلك وفق لما تقتضيه القدرة الضئيلة لأي متأمل لحذافير الفكر الإنساني ، نطلق على تلك الخزعة كل ما نشاء من تحاليل استقرائية في حدود ما هو في الميسور ، لعلها توصلنا إلى معرفة ولو ضئيلة بحقيقة قيمته.

أما كل ما يشتمل عليه الفكر ، فنحن نعترف مقدما بأننا نعجز عنه ، بل تعجز عنه أي قدرة منفردة .

وبعد الدخول في هذا المجتزأ المنزوع كخزعة ضئيلة متناثرة من مجمل خصائص الفكر الإنساني ، سوف نلقي نظرة مجتزأة أيضا على ما للإنسان من قيمة بصفته الفردية ، وضمن وجوده في إطاره الإنساني داخل هذا الكون إلا متناهي الذي لا تلم به قدرة الفكر البشري ، مع كل ما يسخره من أجهزة الرصد والاستكشاف .

أجل ، علينا التقدير الصحيح لقيمة الإنسان الحقة من وجهة نظر نقر ابتداء بأنها محدودة عن

الشمول ، ولكن يتعين علينا الا نقف عند حد العجز، وإنما نحاول بما في قدراتنا لعلنا نلقي بحزمة ضوء تنير لنا مقدار خطوة لموقع أقدامنا نهتدي بعدها إلى طرق معرفية أكثر على ما لنا من مكانة داخل هذا الكون اللامتناهي ، وعندها ربما نكف عن تصعيد أبصارنا عاليا ظانين بأنفسنا أننا مركز الكون ومحوره، كما افترض أحد الفلاسفة العرب عندما قال (إن الأرض مركز الكون) .

فهذا الخطأ في الظن مميت لنا ، وهو ما قادنا إلى كل ما نناله من سوء التقدير في كل ما نتناوله من أمورنا الحياتية من معوقات، وهو ما كبّل مسيرتنا وشح في عطائنا نحو الأفضل بالنسبة لأنفسنا .

قيمة الإنسان في ذاته:

فعلى الرغم من أن أرضنا ليست إلا تكوينا جزئيا في كون لا متناه ،وأنها ربما قد تكون نتاجا عارضا من تكوينات العباب الكوني الأعظم ، وعلى الرغم أيضا من معرفتنا من أن المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا تقع داخل مجرة تحوى مجموعات شمسية هي أيضا لا متناهية ، وقد تتشابه مع مجموعتنا أو تختلف، ومجرتنا بدورها تقع ضمن عباب من مجرات غير متناهية العدد ، كل ذلك يبين لأي متفكر مدى بخس أرضنا وقلة قيمتها بالنسبة للكون.

وبالتالي تتضح له ضآلة الإنسان وهو يدب على أديمها بما لا يتجاوز في علو القدر نسبة إلى الكون الكلي ، بما لا يقاس ضآلة من قيم تلك اللامتناهيات .

إلا أن الإنسان اعتاد في رؤيته إلى نفسه أن يعتقد العظمة ، معطيا لها قيمة لا تتناسب مطلقا مع حقيقة واقع كينونته ، ظانا أن ليس في مقدور غيره مما في هذا الكون الشاسع أن يجاريه في تلك القدرة التأثيرية التي له على الكون لأهميته المطلقة عليه ، هذه القيمة التي يضخمها له غروره على سند مما يخترعه لنفسه من أوهام.

و مما لا ريب فيه ، أن هذا ليس إلا تجاوزا مخلا في تثمين نفسه ، يتعدى بونا شاسعا لما هو عليه من وضع بخس وضآلة حقيقية .

وهذا القدر من القصور في الرؤية يجعل فكرنا قاصرا فيبطئ من خطواتنا نحو السعي إلى مطاولة التطور مما يؤدى إلى بطء آخر في إزاحة الأفكار الخاطئة التي نخلقها لأنفسنا وتكون سببا في إعاقتنا.

ولكن نحن مع ذلك قد نكون محقين في إعطاء أنفسنا هذه القيمة العظيمة ، فإدراكنا لها قاصر لم يتعد حدود البساطة لدينا ، بل نحن لا نزال عاجزين عن الإلمام بكل ما يشملها ، ولا نزال في جهل مطبق من المعرفة في الكثير من تكويناتنا الجسدية التي تنتج عنها تلك التفاعلات الميكانيكية الكهرو مغناطيسية التي تنتجها أجهزتنا البيولوجية التي تميزنا كحيوانات مدركة حتى بعد عمليات التشريح والدراسة من العلماء أنفسهم دون استثناء.

نحن لا نلم بها إلا إلماما ضئيلا ، و بمعرفة استقرائية ناتجة عن تصورات غير يقينية يطلق عليها مسميات رمزية (كالرّوح) أو في الحال الأفضل (الطاقة الذهنية) لعجزنا عن فهم كنه أنفسنا ، وهذه المعرفة الاستقرائية لا ترقى إلى درجة اليقين الميكانيكي في فهمنا لها لكي يقودنا إلى تعديل تلك الطاقة الذهنية أو الروحية لتحسين ادائها ، ومن ثم إطالة أمد فعاليتها ، فهي تنتهي رغما عنا ، وحتى إنه لا يمكننا حثها وطلب المزيد منها للعمل التطبيقي ،

بأن نزيد من نسبة ذكائنا مثلا ، ومن ثم تزايد قدراتنا على استنباط الأفكار لمعرفة طبيعة وجودنا ومن ثم الرقي به ، وحتى بعد أن فكت شفرة الجين البشري وبات في الإمكان عمل خريطة لجينومه ، و مع هذا ليس في مقدورنا إلا تخيليا أنه يمكن استبدال صفاتنا استبدالا سليما لا يؤثر في مسيرة خلقتنا الطبيعية.

ولكن نستثني فنقول إنه من الممكن أن يكون الإنسان ذا قيمة ولكن من نفسه نحو نفسه فحسب ، تتمثل في ذاته الخاصة به وحده ، لا تتجاوزه مقارنة إلى ما عداه من موجودات الكون ، ويمكنه إدراك تلك القيمة حينما يقتصر في بحثه عليها من خلاله و من ثنايا ارتباطه بالآخرين ، أي من خلال إطاره الإنساني فقط ، مقر ابتداء بمحدودية أهميته الشاملة للكون ، وبأن وجوده الإنساني لا يساوي ذرة رمل على شاطئ محيط بالنسبة لعبابه اللانهائي .

وإنً ليس ثمة من سيعطيه أهمية أو سوف يطلق عليه قيمة غير ذاته ، وعليه حينئذ أن يعتمد علي نفسه في تسديد خطوته و إقالة عثرته ، وإلا فلن يفلح في الارتقاء بوجوده أبدا .

فعندما يعي ذلك تماما ويعرف أيضا أنه لا وجود لمن يساعده غير عقله وعضله ، فإن كبا فكبوته ناجمة عن حمقه وإن سما فسموه ناتج من تعقله الأمور ، وأن عليه أن يحكم نفسه بذاتها فله فخرها وعليه وزرها .

وعندما يعرف أيضا إن وجوده ضمن هذا الكون ليس له أي اعتبار، سواء ما كان منه ماديا أو معنويا إلا في حال إنتاجه للأفكار التي تخدمه، وأنه لا يشكل أية اهمية لغير ذلك، وأن كل قيمة لذاته يسبغها على نفسه لغير ذاته، لا تعدو كونها تخيلا يتخيله، ولابد أن تكون مثمنة بخسارة كبيرة بالنسبة للكون عدا عن وجوده بالنسبة لإنسان آخر فحسب .

حينما يعي أنه لا رابطة تربطه مع كون أشمل منه لضآلة تأثيره فيه، حينئذ ينجو بفكره من الوهم بأنه مركز الكون ومحوره، وأن لا غنى عنه فيما يقدمه لهذا الوجود الشامل من خدمات يتلقى عنها ثوابا أو عقابا ميتا فيزيقيا آجلا، أو فيما يأمل أخذه من مقايضات ربحية عاجلة قد تكون مركبة او طردية، مطبقا من أجل ذلك مفاهيمه المبتدعة منه على كون يجهله .

و عندئذ سوف يفهم أنه لن يجد الفائدة سوى ما يجلبه حسن تصرفه فيما يخدم ذاته وذات الآخرين .

وأيضا عليه أن يعلم أنه لن يحصد من هذه الملهاة التي يخلقها لنفسه ولا يعرف مغبة لهوه سوى أن يشغله التفكير بتلك المفاهيم والعمل على تنميتها عما يتوجب عليه من التوجه إلى التفكير المنطقي الذي حتما سيقوده إلى التعرف على دروب ومسارات يرى من خلالها وضعه الحقيقي فيبني وجوده ويكيف حياته تبعا لهذه المعرفة .

فحينئذ فقط يخلص ذاته من القيد المكبل لمسار أفكاره الذي صنع بنفسه سلاسله ، وعندئذ أيضا ينطلق في رحاب أوسع في محاولاته الفكرية ، ويكسب ليس فحسب التعرف على ماله من قيمة تكبر أو تتضاءل نسبة إلى الكون ، بل تقربه إلى ما يخدم وجوده المحض، خدمة تعود عليه بالفائدة الآنية التي لا تنتظر التأجيل أو المماطلة ولا تخرج عن نطاق وعيه وإدراكه .

أجل عند ذاك سوف يخلص إلى التأكد أنه لا قيمة حقيقية له في هذا الوجود بالنسبة له إلا بوجوده نفسه بالنسبة إلى نفسه ، سواء كان فردا أو ضمن وجوده النوعي بصفة عامة ، وسوف يدرك قيمة السعي إلى الارتقاء بذاته دون معوقات تعرقله ، فينحو بعقله إلى آفاق فكرية أرحب بعيدا عما يكبله بذلك الوهم ، بحسبان أنه مركز الكون ، ووجوده مرتبط بنبعه الهائل، ولذا فهو محور اهتمام الطبيعة وهو أيضا قيمتها الكبرى .

حينما يدرك ذلك يفهم أن لا يأمل بقوة خارقة تحقق مطالبه وتؤمن مستقبله وتحميه من غائلة عجزه ، أي عندما تتضح له الرؤية الحقيقية لمحدودية مكانته ، أو يرى الفرص القليلة المتاحة له على نحو لا يحتمل اللبس ، حينئذ ينحو إلى التفكير الواقعي غير المغلف بالأوهام بمطالب عسيرة على التحقيق ، ومع

ذلك لا يدرك عسرها بسبب ذلك الوهم الذي يتسربل به عن أهميته .

فعندئذ ينطبق عليه قول القائل ، إن إدراك الإنسان لاستحالة مطلب ما ، مؤداه إلى إدراك القناعة بالتخلي عنه.

و لذا فإن الرأي في تطبيق هذا المبدأ على ما نرمي إليه يجعل الإنسان يختصر دأبه في البحث عمن يدله عما في ذاته من قيمة عند غير ما يشتمل عليه وجوده النوعي ، وانه لا يعدو نفسه فيما يملك من تلك الأهمية .

والأهم من ذلك أن ينتفي عنه مبعث الإحساس الدائم بالتأرجح بين فكرة عبثية وجوده ضمن ذلك العباب من الوجود كلما سرح به تأمله متفكرا ، وبين القيمة العالية التي يعطيها لنفسه داخل ذلك الإطار المعبأ بالأوهام الذي يقوده إلى افتعال مواقف زائفة تعزز ذلك الاعتقاد عنده ، وفي الوقت ذاته تضلله عن الحقيقة المحضة التي تغلف كينونته .

إذن ذلك لا يتطلب من الإنسان سوى إدراك الفارق بين موجودات الكون الشامل بعظمته وبينه بضآلة وجوده ، وسوف يسوقه هذا بدوره إلى مدرك أخر يؤدي به إلى التخلي عن يقينه على ما في وجوده النوعي

من تلك الأهمية ، ومن ذلك التأثير الذي له على الكون برمته.

وبلا مراء في الجدوى التي ستعود عليه عندما يلتفت إلى القيمة الحقيقية في ذاته و في وجوده الآني كفرد وكنوع فحسب ، فيصب اهتمامه على ما يرتقي بذلك الوجود الذي يمثل الحقيقة الوحيدة في حياته .

إذن لو قام الإنسان باستقراء حقيقة واقعه ، ومن ثم جاءه اليقين بأنه ليس إلا نتاجا عرضيا ، ربما جاءت به الصدف لإحدى التفاعلات الجزئية لأجزاء عارضه وغير مهمة في عباب هذا المحيط الكوني ، عندئذ سوف يقتنع حتما بأن لا قيمة لوجوده إلا في ذات وجوده فحسب ، وليس نسبة إلى أي قياس آخر في هذا الكون المترامي .

أجل ، عندما ينظر إلى قيمة ذاته في ذاته غير معتمد على ما يتوهم من قيمة له خارج حدود ذلك الوجود الخاص به .

وأن ليس ثمة من يهتم به غير نفسه ، عندما يعرف تلك الحقيقة ويؤكدها لنفسه بنفسه بأنه لا شيء ذا أهمية خارج إطاره الإنساني ، حتما سوف يقوده منطق الأمور إلى التخلي عما عدا التفكير بتحسين واقعه ومن ثم يجعل الارتقاء بكينونته هدفا حيويا ومطلبا

وحيدا ، إذ ليس له ما يشغله سوى ذلك الهدف وحينئذ فقط سوف يسعى جادا إلى محاولة تغيير واقعه بنفسه ، ساعيا سعيه الذاتي إلى تحسين ذلك الوجود مستمدا قوة ذلك التغيير من قوته الذاتية .

ونحن بوصفنا كائنات إنسانية فإن هذا هو ما يهمنا بالدرجة الأولى .

والآن لنلق نظرة مستقرئة على ما نفهمه من تلك الخزعة التي اجتزأناها من خصائص فكرنا الإنساني لعلها تعيننا على الوصول ولو قيد أنملة إلى ما نستهدفه ونسعى إليه من فهم لوضعنا داخل هذا الكون العجيب .

خزعة من حذافير الفكر:

سوف نرى من هذه الخزعة بعضا من قدرات العقل ، وما تسببه من جدلية الذات ، وسوف نكتشف صفة مجتمعية الفكر الإنساني ، ثم حالات الإبداع وأخيرا المعوقات الفكرية للشخصية السوية .

ولكن قبل الدخول في هذه المنحنيات علينا القول ، أنه على الرغم من صفة الكلية التي نطلقها على ما يمتلكه الإنسان من فكر ، كقولنا -حذافير الفكر- إلا إنها كلية مجازية لمحدوديتها ، و هو فكر بأي حال لا يعدو ما يمتلكه الإنسان من قدرات أشد ضآلة من خطوة اضأل حشرة نسبة إلى المعرفة الكلية ، أو مما يمكن معرفته لو تيسر لنا الإطلالة على خارج وجودنا ، أي لو كان في إمكاننا شق ذلك الوجود والخروج من إطاره والنظر خارجه مع بقائنا متملكين وعيا استيعابيا غير متناه يمكننا من الإحاطة بما نراه من وجود لا متناهٍ ، وهذا بطبيعة الحال فيه ما فيه ، ولا يمكن أن يقال إلا أنه بادي الاستحالة ، على الأقل في مدى زمننا المتخيل .

بيد أنه ليس في الميسور تصور ما قد يستجد من قدرات للإنسان بعد مرور مليارات الأعوام ، فقد يكون عالمنا الحالي بالنسبة إلى المستقبل عالما من البدائية في عصرها المظلم .

ولكن مع ذلك سوف نحاول أن نرى ما في تلك الخزعة من منطلقاتنا الفكرية القادرة على تحويل مسارنا نحو الأفضل ، ونحاول أن نفك بينها وبين ما نرى من معوقات تعرقل تلك القدرات البسيطة فتزيدها تبسيطا ، مما يؤدي إلى تضاؤل فعالياتها بسبب من ذلك الربط التعسفي بين الوجود الإنساني المادي وما نحاول أن نخلقه من فيزيقية للكون نقيد بها أنفسنا إن جاز التعبير ، بعامل ربط وهمي خلقناه نحن ، جاعلين منه عاملا معرقلا لوعينا ، على الرغم من أنه ليس علينا من ضاغط يدعونا إلى ذلك الربط سوى انحرافنا الفكري ، الذي سببه ذلك الخوف الذي يعتري الإنسان البدائي مما يجهله ، والذي يبدو أننا توارثنا عنه ذلك الرعب الذي كبلنا على مرّ العصور وما يزال يجثم على عقولنا .

وعلى الرغم من هذا الشأو الذي قطعناه في سلم الحضارة ، إلا إنه لا يزال الكثيرون منا يسبحون في خضم الهلع المسيطر على أفئدتهم من مجهول يتهددهم ولا يعرفون مصدره .

وربما جاءت لنا تلك الخشية بسبب من عدم معرفتنا السحيقة بظروف كوننا ، وبما أن الإنسان يرتعب مما يجهله ، فقد رسخ ذلك الرعب المهول في

وعيه الوجداني على المدى الطويل من حياة البشرية ، ولم يغادره بعد ذلك أبدا .

ولكن قبل الخوض في تصور تلك العوامل المتشابكة المتسببة في إعاقتنا أو محاولة التعرف عليها ، يتعين علينا وبطريقة يسهل فهمها على الجميع ، أن نستقرئ استقراء مبسطا من تلك الخزعة التي اقتطعناها ، فنستدل على تباين القدرات الفكرية بين إنسان وأخر لكي نرى المزيد مما يسببه ذلك الاختلاف في ماهية القدرات الفكرية لدى الأفراد من مشكلات ، وبالتالي ما تسببه من عراقيل للارتقاء بوجودنا الفردي والنوعي .

تباين القدرات الفكرية لدى الأفراد:

فمن المعروف للجميع أن القدرات الفكرية بين الناس تختلف متفاوتة بحسب حظوظهم مما يصيبهم من سوية الخلقة الطبيعية التي تسم وجودهم والتي ليس لهم دخل في تكوينها .

وكلمة حظوظ مجازية التعبير يراد بها المصادفة العمياء ، تلك التي ليس للمرء القدرة على السيطرة عليها أو تغيير مسارها إلا ربما بمصادفة مماثلة تكون ظروف الانتفاع منها خارجة عن قدراتنا ، أي ليس لقدراتنا دخل بصنعها أو تهيأت الظروف لإيجادها .

وإذا القينا نظرة سريعة على أصناف البشر نرى أن طرائق التفكير في أشد حالات التباين ، فمن مبتدع إلى منساق خلف إبداعات الآخرين ، إلى متمرد على كل إبداع أو مقلد إلى إبداعات غيره على الرغم من عجزه عن الإتيان بمثله أو مساويا له ، فيصر ساعيا جهده إلى التقليد ، باذلا قصارى جهده في المحاولة التي قد تؤدي إلى المعرفة بتلك العوامل التي شكلت المجرى الفكري لتلك الشخصية النموذج فطبعتها بتلك الطرائق من التفكير ، مستهدفا فرض عوامل مشابهة لها .

تلك العوامل التي قد تكون بارزة وظاهرة للعيان ،

فتبدو لنا وكأن سمات معينة متضافرة أدت إلى إبراز تلك المقدرة الفكرية لدى الشخصية .

فيقوم باستغلال و استخدام بعض العوامل المحيطة بتلك الشخصية المفكرة وربط نفسه بها .

والحقيقة أنها لم تكن سوى عامل مساعد أدت إلى طفو قدراته على السطح ليس أكثر .

يفعل ذلك لكي يحظى بفرصة مماثلة لما صنعته الطبيعة أو الظروف بتلك الشخصية المميزة في إبداعاتها .

وكأنه بمحاولاته يريد أن يصنع تقليدا لأوضاع أو ظروف مشابهة تقوده إلى ما يجعله يحصل على نفس النتائج ، وبالتالي يفضي به عن طريقها إلى تلك الدرجة من المقدرة ذاتها التي كانت لتلك الشخصية الفذة ، وذلك فقط لو أنه اتبع نفس الأساليب والوسائل وهيأ لنفسه نفس الإمكانات .

ولكن هيهات لمن يريد التقليد أن ينال مرامه ، فالحقيقة المحضة أنه من غير المجدي البحث عما يسمى بالعوامل المشتركة التي قد تكون مؤثرة -على الرغم من فعاليتها - ومن ثم تقليدها بالعمل على اصطناع أمثال لتلك العوامل ، وتهيئة أسباب معينة لفرد معين ، ومن ثم توقع إنتاج نفس النتائج المطلوبة ، لتكون على نفس الدرجة من تلك القدرة من التكوينات الفكرية لتلك الشخصية الفذة ، أو تكون

مـشـابهـة لهـا علـى الأقل إلا إذا كـان الشـخص المقلد موهوبا بالخلقة الفطرية ، وإلا لأصبح كل منا عبقريا في المجال الذي يقلده أو علـى الأقل لأصبح كـثيـرا من التطابق الفكري لأخوين يعـيشـان في ظروف واحـدة محتما .

بيد أنه لو أردنا الدقة العلمـيـة ، نرى أن الحـقـيقـة غير تلك بتاتا فإن من ينتج للمرء الطرائق المميزة في التفكير ما هو إلا استعداده الفطري المتكون لديه من طبيعة جيدة في خلقة أجهزته المادية ، التي إذا كانت طبيعة خلقتها سوية ستؤدي حتما إلى تشغيل أجهزته الفكرية تشغيلا ميكانيكيا سليما ، مما يجعل لها القابلية على استقبال الأفكار الأخرى من العديد من الاحتمالات إللانهائية ، ومن ثم التفاعل معها وإنتاج افكار جديدة تلك التي لا يمكن إلا أن ترتبط به وحده دون غيره ، متشكلة لديه بصورة خاصة منفردة ، ومكونة له ذلك التيار الفكري الذي لا يشاركه به أحد ، أما إذا كانت تلك الأجهزة رديئة الإعداد فلن ينتج عنها إلا ما يقابل ذلك الإعداد من درجات سوء التصرف ، وهذا يكون غالبا خاصا بالمجرمين ، أو الإيقاف دون الإبداع الفكري أو العملي المميز أو شديد التميز ، فينشأ الإنسان العادي ، وهم غالبية الناس .

إذن نخلص إلى أن الوجود البيئي المحيط بالفرد ، أو

أن ذلك المؤثر المهم الذي يكون الفرد قد تعرض له في مستهل حياته أو حتى في فترة كهولته الناضجة ، وهي الفترة التي عادة تكون مؤثرة فيما يحيط به ، فإن هذا ليس هو السبب الكلي في ذلك التميز الفذ لتلك الشخصية المفكرة.

وعسر جدوى التقليد يتمثل بعدم ميسورية وضع خطوط فاصلة تعود بمكونات الأفكار إلى عناصرها الأولية، ثم العودة بتلك المكونات ورصفها رصفا يعرفنا بكيفية عملها الجذري لدى المقلد منه ، سواء ما كان منه متعلقا بالكتلة المادية - مخ الإنسان - أو بالتقويم النفسي كما هو في التعبير المجازي ونعني به - طرائق التفكير - ، ومن ثم بعد هذه المعرفة وبوساطتها نحاول أن نقوم بتفكيك الفكر الإنساني فنضع خطوطا نفصله بموجبها إلى عناصره الأساسية على الرغم من ضآلة معرفتنا ، ومن ثم نقوم بمقتضاها بعزل وفرز المؤثرات التي أدت إلى تلك المكونات الفكرية لشخصية الفرد ، ومن ثم السعي إلى تقليدها على أنفسنا ، وهذا بطبيعة الحال بادي الاستحالة تماما ، حتى مع كل ما توصل إليه الإنسان من علم تكوينات الجين الحيواني ، بل وفك شفرة الجينوم و مع وجود التقنية للهندسة الوراثية ، لان كل ما سوف نتوصل إليه لن يعدو سوى جزء يسير من مليارات الصفات المتداخلة التي

يستحيل ترتيبها على أنفسنا واستبدالها على نحو ما نريد بما يتواءم وجميع الصفات المرغوبة لشخصية أخرى نريد تقليدها ، وأنه إذا غيرت الهندسة الوراثية صفة ما في الإنسان فهي غير قادرة على تغيير ما يشتمل عليه كل ذلك الإنسان ، وبالأخص ما يصطلح على تسميته بالذكاء ، تلك المجموعة من الجينات المختلفة لدى الإنسان التي تكون القدرات التي لا يمكن إحصاؤها أو فك طلاسم تداخلاتها كالقدرة على الكتابة الأدبية ، أو الرسم، أو المهارة الرياضية ، أو استنباط المعادلات الكيميائية لإنتاج مواد جديدة كل الجدة ، وغير ذلك كثير من الاكتشافات المبدعة ، إذ إن القائمة طويلة يستعصي حصرها .

ولكن من طرائق الاستقراء الذي ننتهجها في هذا الكتاب ، نستدل على أن صفة الذكاء تحتوى على مكونات عدة متلازمة أحيانا و أخرى متفرقة ، وإذا استدل على صفة أو صفات تمت إلى الذكاء بصلة قد لا يستدل على غيرها وحتى لو أستطيع ذلك جدلا واستطاعت تلك الهندسة الوراثية تغيير واستبدال كل تلك الجينات المكونة لفكر إنسان ما لتغيير ذكائه ، فعندئذ نكون قد صنعنا بديلا لذلك الإنسان وليس الإنسان نفسه ، أي إنسان أردنا له اكتساب بديل لصفاته ، وعندئذ من غير المجدي القياس عليه .

وإذن ، وبما انه ليس في وسعنا سواء استقراء ظاهر

الواقع الفكري للبشر ، فأننا نرى أن العوامل نفسها التي قد تقع على شخصين معا وفي آن واحد مع اتحاد كافة الظروف المحيطة بهما ، والتي يرى أنها من كون مجالاتهما الفكرية ، فإن النتيجة وبصفة دائمة وحتمية أنه لا يمكن أن يحصلا إلا على انماط مختلفة من طرائق التفكير غير متوحدة ، حتى وإن حدث تشابه في البعض منها ، وأن التأثيرات فى طرائق تفكير الإنسان التي تنتج عن تلك الظروف في الغالب منها ، لابد وأن تكون تأثيرات متباينة في شخصين يعيشان في نفس البيئة ، يصعب بصورة واضحة تبيان أن لها نفس العوامل الخارجية المتوحدة ، وذلك لأن تأثيرات تلك العوامل مختلفة فى كل فرد بطرائق احتماليه لا نهائية .

فالظروف المتقاربة في الزمان والمكان ، وإن كانت عاملا مهما في توحد الخبرات التي تمر على فردين متلازمين ، إلا أن هناك تباينا في درجة تأثيرها فى العقول التي لابد إلا وأن تكون متباينة بدورها في قدراتها على التلقي .

وحتى مع ذات الفرد المنفردة فإن التأثيرات تتداخل تداخلا مختلفا وفي تباين كامل مع تاريخه الخاص ، إذ لا يمكن أن يكون لها نفس التأثير فيه في كل زمان ومكان .

ولذا يصعب وصف وقعها عليه بالتماثل في ظروف

زمانيـة ومكانية مـختلفة ، فما بالك بالنسبة لغـيره من البـشـر، ولذلك لا يوجـد ذلك التطابـق الفكري إطلاقـا بين أيٍ مـن الناس حـتى بين الأخـوين التـوأمين عـلى الرغم من تعـرضـهـمـا لنفس العـوامل والظروف مـا لم يكن اشــتـقــاقـا لـلإنـسـان نفـســه (الكولننـغ) لتطابق الـتكوين الجـســدي ومــا ينتج عـنه من تفــاعــلاتـه الميكانيكيـة الكهـرومغنـاطيسـية ، وحـتى هـذا لم يوجـد إلا في مخيلة أدباء الخيال العلمي حتى الآن ، ولا نعلم علما يقـينيا مـاذا سيكون عليه التطـابق التاريخي ؟ أي مـاذا سـيكون من توحـد الخـبـرات والتـأثيـر الـواقـع على تلك القدرات المطبوعة في كينونتهم الطبيعية المحضة؟ وحـتى إذا أخـرج ذلك التـخـيل ، تطابق في الـكينونة إلى واقـع التطبـيق العملي ، كـما تشـير إليـه قرب تكنولوجـيا الهندسـة الوراثـية كمـا في عـمليات الاسـتنسـاخ البـشـري المتــوقـع ، وتم تآزر تـكويـنات الـذات المادية لفـــردين مـع الظروف المحـيطة وتـطابقـهــا ، كـوحـدة الجين وظروف البيئة والتربيـة وانعدام فارق السن بين الإنسان وكولونه والتـلازم المكاني ، حـتى لو حـدث ذلك كله ، ومـع كل ذلك فــانه من المسـتـحـيل أن يـجـعل الـتطابق الـفكري تامــا بصفتـه المطلقة ، وحتى بعد تبادل الخبـرات بين المنسوخ وتوأمــه المطـابق له عـن طريق تـقنيــة خـاصــة مــعــززة بالواقـع الافـتـراضي وعمليـة تبـادل الخـبـرات تقـنيا ، كـأن

توصل أقطاب كهربية في مراكز معينة من القشرة المخية يسري من خلالها البروتين المحمل بالخبرات ويتم ذلك بالتنافذ التبادلي ، أي سريان الخبرات من وإلى الطرفين ، كما جاء في رواية (القرية السرية)* ، إلا أنها ستكون خبرات محدودة ، لعدم القدرة على التواصل المستمر من دون انقطاع ، كما في فترات التوقف عن تبادل البروتينات التي تحمل الخبرات لعدم ميسورية جعل الحركة اليومية لأي من المتطابقين مترافقة دوما ، كما هو الحال في خلايا الجسم الواحد ، ومن هنا ينشا التاريخ اليومي المستقل للنسخة الواحدة بعيدا عن كولونها ، فتتنوع الخبرات تنوعا غير متماثل ، ثم هناك من الخبرات القصيرة المدى ، التي ليس في قدرة المرء تذكرها ، إذ سرعان ما ينساها ، لذا ربما لا تنتقل عن طريق تلك التقنية ، ولكنها حتما تؤثر في سلوك الفرد حتى وأن كان غير واعٍ بها .

ومن هذا يتضح أن ما يؤثر من العوامل في التكوينات الفكرية لشخصية معينة ، لا يكون لها نفس التأثيرات في الشخصية الأخرى حتى مع اتحاد الجين والظروف البيئية اتحادا كاملا لشخصين يعيشان في

* رواية فى الخيال العلمي للمؤلفة.

زمن واحد ومكان واحد في تلازم تام كما في حالة الاستنساخ المتلازم، أو اتحاد الجين المكون لفردين يعيشان في زمنيين مختلفين في حالة أخرى من الاستنساخ .

ولذا إذا أردنا التحديد في معرفة بعض من تلك القدرات لأي إنسانيين وربطها بتأثير عوامل معينة متحدة الظروف ، لابد أن يكون ربط تجاوزي غير محكم ، نغفل عامدين نظرية الدقة العلمية في الطرح.

و عندئذ فقط يمكن بمقتضى ذلك أن نطلق بعضا من أحكام الصفات المجازية على تلك المعرفة ، فيما يخص قدرات ذلك الإنسان ، وربما كانت الأقرب إلى الحقيقة كما تبدو لنا ، ولكنها ليست هي الحقيقة الكاملة .

ولكن الأهم من ذلك أن الإنسان وإن كان مستقلا بتكوينه الفكري لا يشابهه في ذلك أحد إلا أنه لا يمكن أن يتعايش مع نفسه بفرديته المطلقة ، فهو دائما في حالة تعطش إلى مصاحبة الفكر الآخر .

لا عزلة لفكر الإنسان:

الفكر الإنساني يتصف بأنه مجتمعي تفاعلي عام لا يمكنه أن ينمو ويتبلور بمعزل عن الآخرين ، وعما تحويه بيئته من مادة حية أو جامدة ، ولذا فأنه على الرغم من كل ما تقدم ، فنحن لا ننكر بصورة مطلقة أهمية تأثيرات البيئة فيه بطبيعة الحال ، ولكننا نراها تأثيرات مساندة ، لها دور تعزيزي ومرسخ لذلك الاستعداد الفطري القابل للتطور وليس أكثر من ذلك، ومن هنا يمكن القول إن البيئة ليست خالقة صفات الإنسان المطلقة من العدم .

وأن تلك السمات التي رأيناها بصورة مجازية أحيانا وبصورة معبرة عن ذاتها في أحيان أخرى ، نرى أيضا أنها جاءت من مؤثرات معينة متوافرة في أي فرد خلقيا في الدرجة الأولى ومن تأثير البيئة في الدرجة الثانية ولكن لا يقل أهمية عن الأول وأن جاء تاليا له.

إذ أن ما يحدث لفكر الإنسان حتى وهو داخل بيته الرحمي الدافئ ، وبعد خروجه العاصف إلى الحياة الواعية يكون خاضعا بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى عوامل مؤثرة بمساهماتها في تكوين قدراته الذهنية ومؤدية به إلى الانسياق في طابع معين وإلى مناخ من التفكير يختص بها وحده دون غيره ، وكان يمكن أن

تكون مختلفة عما هي عليه لو لم يتعرض إلى تلك العوامل التي أدت به إلى هذا المساق ، من حياة فكرية اعتيادية أو تمايز يثير الإعجاب ، وربما الدهشة أو العكس من ذلك تماما ، وإن تلك القدرات الفكرية ما كانت لتحصل على ما تحصل عليه من تلك الصفات لو لم تتعرض لتلك العوامل البيئية .

إذن فالظروف المؤثرة في تكوين الإنسان تتخذ دور العامل المساعد على نمو تلك القدرات الفكرية نموا سليما أو غير سليم ، ولكنها ليست سببا أوليا في نشوئها ، لكي يكون بموجبها ذا فكر عقلاني أو بارزا بنمط معين من القدرات ، كالقدرة على الكتابة الأدبية أو المعرفة الفلسفية، أو بارعا في الكيمياء أو الرياضيات أو ما يضاد منطق العقل، إن لم يكن له الاستعداد الفطري الذي يطبعه بذلك الطابع .

مما يؤدي بنا إلى القول على الرغم من مجازيته ، إن فلانا أديب أو عالم في الرياضيات أو في العلوم الفيزيائية أو غير ذلك من شئون المعرفة ، لأن ظروفا جعلته على هذا المنحى من التفكير ، وقد ندفع غالبا إلى القول مفترضين أحيانا ، ومؤكدين أحيانا أخرى ، إن تلك الظروف من كون لديه تلك الموهبة بهذا المجال ، أو ذاك مما حدا به إلى أن يبز أقرانه أو أنها من سبب له الإعاقة ، مع أنها في ذروة الحقيقة لم تكن سوى عامل مساعد له أو عليه .

بيد أن البيئة وأن كانت عاملا مساعدا في بروز تلك القدرات ، فهي عندما تكون عائقة تصبح سببا مباشرا في كبتها أو تعطيلها فيكون ذلك الإنسان المعاصر في تلك البيئة ذا فكر عادي أو حتى سفيها .

أجل ، في هذه الحالة يكون دور البيئة ذات الأثر السيئ شديد التأثير في معاقل الفكر لدى الفرد ، على الرغم من كونها لا تزال عاملا مساعدا كما هو الحال دائما ، ولكن تأثيرها يكون منصبا في صيغة الفعل المباشر على إيقاف النمو الفكري ، فقد تؤدي إلى سلبية تامة أو جزئية ، عاملة عملها على الهبوط في طرائق تفكير الشخصية المتميزة خلقة ، فتطمر كل أو جزء من مواهبها أو تعرقل تسارع ظهورها مما يحرمنا منها أو يقلل ويبخس من شأن الاستفادة من نتاجها ، على العكس تماما مما لو كانت كل الظروف ممهدة أمامها .

ومن هذا نخلص إلى أنه إذا كان للدور البيئي من تأثير فسيكون دورا مساعدا في الاتجاه الإيجابي لما يخدم الشخصية في قدراتها ، ولكنه يكاد يكون دورا شبه أساسي ومؤثرا إذا كان في الاتجاه السلبي ، خاصة إذا كانت تلك الظروف من القوة بما يسبق إرادة الشخصية في زخمها فارضة قدراتها عليها ، مما يؤدي إلى كبت الفطرة الجيدة في الشخصية السوية ، مسببة لها الإعاقة الظاهرة أو الخفية المبطنة بأسباب غير

مرئية ، وإن بدت الشخصية كاملة مظاهر الخلقة السوية.

إلا أن لهذا حديثا أخر سوف نأتي على ذكره فيما بعد ، عند الحديث عن المعوقات الفكرية للشخصية السوية .

وأخيرا ولكن بشكل هام .

نرى أن القدرات الفكرية ذات الفعالية العالية ، سمة مخلوقة مع الإنسان دون غيره ، تتباين بين أفراده قوة وضعفا ، وأن قيام الشخصية الفذة بممارسة قدراتها الموهوبة لها بشكل صحي وخال من المعوقات في ذات المنحى الذي هيئته الطبيعة لها في الظروف العادية ، فإذا وجدت نفسها سائرة فيه فانها سوف تنشأ كاملة السوية.

ولكن نرى أيضا أن هذه الفطرة لا تكفي وحدها لخلق مفكر أو مبدع ، إذا لم تعش تلك الفطرة في وسط مهيأ يساعد تلك الشخصية السوية على تبلور أفكارها في الاتجاه السليم ، ويجعلها اكثر قدرة على الإمساك بنواصيها .

إذ لابد من تعزيز الفطرة بعوامل إضافية باقترانها بالبيئة الجيدة ، فأن ذلك سوف يساعد الفرد على استكمال سويته .

وأيضا هذان العاملان لا يكفيا وحدهما إن لم تعش تلك الشخصية عملية الشحذ الذهني الدءوب بإخضاع تلك القدرات إلى المران المتوالي .

إذن ، في نهاية هذا المنحى من القول ، نخلص إلى أن دور البيئة في تكوين القدرات الفكرية لدى الفرد في المجال الإيجابي يكون دورا مساعدا ، ودورها في المجال السلبي يكون أكثر فاعلية لقدرته على الكبت ، أو حتى الطمس أو تغيير المنحى إلى الانحدار.

ولكن ثمة شيئا مختلفا ، يجعل لدور البيئة من الأهمية القصوى في التأثير في معاقل الفكر لدى الفرد أولا ، والتي تعود بنفس الدرجة من التأثير على المجتمعات ثانيا، وذلك عندما تكون تلك المؤثرات سائرة في دورها على تحفيز ظهور العبقرية السالبة ، فهذه كأي شيء سلبي في الطبيعة تسير وفق قانون أزلي ، يقتضي بموجبه أن كل عملية هدم تجري سريعا في كل أمر من الأمور ، على العكس من عمليات البناء المتباطئة ، سواء كان الخاضع لها ماديا ميتا أو حيا يسعى ، أو فكرة يجر تطبيقها إلى تغيير في مجرى الحياة ، فتكون أكثر يسرا وسهولة من أي عملية بناء .

ولكن قبل ذلك علينا التعرف على مفهوم العبقرية قبل التعرض إلى جانبها السلبي .

العبقرية والجنون:

يمكن باختصار شديد تعريف العبقرية بأنها التطرف في القدرة على التفكير بالغ التأثير سلبا أو إيجابا.

وهنا يتعين علينا التوقف قليلا ، فالتطرف في القدرة على التفكير لا تعني تلك القدرة المطلقة ، وإنما يراد بها أقصى ما في قدرة الإنسان من امتلاك نفاذ البصيرة ثم التعبير عنها تعبيرا تطبيقيا أو نظريا يفيد واقع الإنسان ، أو يؤدي به إلى هلاكه ، ولذا نعود فنقول إن هذا التطرف في القدرة على التفكير ، أما أن تكون في الجانب الإيجابي لما يخدم الحياة في مداها الأبدي مغيرا من صيرورتها المتوالية إلى مآل أفضل ، أو تكون في الجانب السلبي بما يهدم الحياة هدما يحد من نموها ردحا طويلا من الزمن.

و يمكننا أن نعطي مثالا على العبقرية السالبة البازغة لتوها تلك التي لم يعم تأثرها بعد فنمهد لها بالقول ، إن القدرات الفكرية للإنسان تنقسم إلى قسمين شديدي التباين ، هما العبقرية والجنون ، وتندرج في أحيان غالبة بين هذين الحدين المتطرفين ، وهي الصفة المتوسطة التي تسم معظم البشر .

وإذا أردنا التعريف على أقصى ما في القدرة البشرية من طاقة على التفكير فإننا نطلق عليها العبقرية ،

وسوف نرى أنها القدرة المنتجة للأفكار المؤدية إلى تغيير في مسار الإنسانية في إحدى أوجهها تغييرا جذريا نحو الرقي أو النكوص بها نكوصا مؤثرا على مدى طويل من الأزمنة في وجهها الآخر .

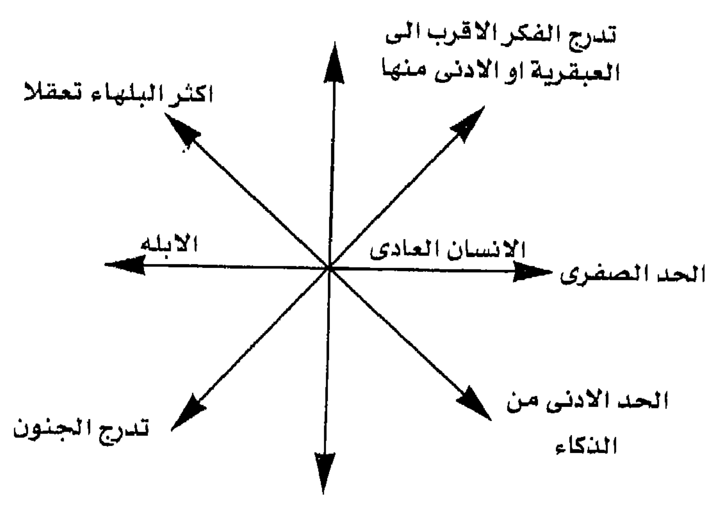
وكمثال فسوف نتحدث عن العبقرية السالبة بالتفصيل فيما بعد .

أما الجنون فهو التطرف في عدم القدرة على التفكير بما يخدم واقع الإنسان أو حتى بما يضر به ، ولذا يعتبر كما مهملا يلقى به إلى جانب مهمل في أثناء التعامل مع الحياة .

ومن هذا نرى أن العبقرية والجنون على طرفي نقيض ، وفي خطين متوازيين من السلب والإيجاب ، ولا يمكن أن يكونا على حافة التماس لكي يتداخلا كما يظن البعض عندما يقال إن العبقرية تقود إلى الجنون ، ولكن قد يحدث أن يجن عبقري كأي إنسان أخر من البشر (يمرض بعقله) ، وإنما لا يحدث أن يكون المجنون عبقريا .

ولو أخذنا العقل الإنساني العادي كخط صفري يفصل بين السلب والإيجاب فإن العبقرية ستكون في أعلى نقاط المستقيم الذي يتعامد مع ذلك الخط الصفري ، والجنون سيكون في أسفل نقاطه ، وما يندرج عن يمين ذلك العمود وشماله يمثل درجات التعقل والجنون ، وإذا مثلنا العبقرية والجنون برسم بياني فسيكون كالتالي:

قمة العبقرية مطلقة التأثير في مسيرة الإنسانية جمعا.



منحدر الجنون غير مؤثر في مسيرة الإنسانية إطلاقا (كم مهمل)

إن هذا الرسم البياني نوضح به كما نرى العبقرية والجنون .

يفصل ما بينهما حد صفري ينتفي معه أن تقود العبقرية إلى الجنون إطلاقا ، ولذا لا يمكن أن يمت بعضهما بصلة إلى البعض الآخر ، وإن العبقري قد يجن كأي إنسان عادي .

ومع ذلك نجد من يصم بعض العباقرة بالجنون حتى وهم في أوج عقلانيتهم ، ربما بسبب من عدم فهمهم لذلك العبقري لخروجه أحيانا بأفكار تتعدى مألوف الأمور لا يفهمها إلا من كان عبقريا مثله .

وقد تتغير علامات العبقرية أو عواملها عبر الزمان ، فمفهوم العبقرية يتغير مع تغير مفاهيم أحداث الأزمنة المختلفة ، فما يُرى من طرائق عبقرية للتفكير في الماضي قد تكون هذه الطرائق في منتهى البديهية ولا تحتاج ممارساتها إلا إلى القليل من الفكر الذي لا يكلف جهدا عقليا ، وقد فقدت صعوبة طرحها لممارسة التفكير بها على المدى الطويل ، ولاكتشاف طرائق أكثر سهولة للوصول إلى نفس النتيجة ، فلم تعد تتطلب جهدا ذهنيا لاستنتاجها ، وذلك لأن الذهن يكون قد تجاوزها قدرة سائرا إلى أفاق أرحب ، أي ما يسمى بزيادة سعة الاستيعاب الذهني .

وإن تلك الطرائق من التفكير وما تقود إليه من التطبيقات التي نراها الآن صعبة على الفهم ، قد تصبح من الأمور البديهية ولا تحتاج إلى مهارة كبيرة في أزمنة تالية لها .

وبالطبع فان ما تقدم من القول لا يقلل من قدر أولئك العباقرة الذين عفا الزمن على أفكارهم وتجاوز إنجازاتهم ، لقد بنوا درجة في سلم الرقي ليس المهم موقع أقدامهم منه ولكن المهم ما تؤدي إليه تلك الدرجة من استمرارية في الصعود ، والحياة تنتظر دائما تجاوز المرحلة التي يكون عليها العباقرة إلى مرحلة تطورية تفوقها تأتي بها عبقرية تزيد

محصلة المطروح منها على محصلة ما سبق من عبقرية العباقرة ، وبذلك يحدث التصاعد في رقي الإنسان .

ولذا فان الذي يبدو من تركيبة العقل الإنساني أن فهمه إلى الوقع الذي هو عليه سوف يأتي لا محالة ، على الرغم مما نحن عليه الآن من بدائيات الفكر تجعلنا لا نرى منه إلا ضآلة لا تقاس نسبة إلي ما سوف يستجد مستقبلا.

وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن قابلية تطور العقل البشري لا تقف عند حد معين فى القدرة على إنتاج المزيد من الأفكار ، قد تكون لا متناهية فيما يستجد من ازمنة سحيقة البعد المستقبلي ، وربما بعد ذلك تحل كل معميات الوجود.

ولكن دعونا نعود إلى ما كنّا بصدده ، فنخلص إلى أن لكل زمان عباقرته .

ونخلص أيضا إلى أن العبقرية الإنسانية ذات طبيعة تصاعدية تبلور أفكارها عبر العصور في خط بياني تصاعدي ، ما لم تُصب الإنسانية بانتكاسة في حضارتها من تأثير كارثة طبيعية طارئة أو ظهور عبقرية سالبة .

ولكن الويل الأشد علينا هو ظهور تلك الأخيرة وهذا هو ما يكاد يتراءى لنا في الأفق البعيد بدءا من زمنا هذا .

وعلى أية حال فالعبقرية سواء كانت سالبة أو إيجابية فليس من السهل ظهورها في حالة البشر العقلية إلا في الندرة منهم وتعاقب بروزها يحتاج إلى الحساب بالقرون في أفضل الظروف ، وقد لا تبرز من فرد كما في الماضي ، وإنما من تضافر الجهود كما في الاكتشافات الحديثة لسهولة الاتصالات و سرعة توالي الظروف المساعدة .

وعلى الرغم من أنه في هذا الآن مازالت المزاحمة والمنافسة المعرقلة لظهور العبقرية قائمة أحيانا ، إلا أنه في أحيان أخرى توجد المؤازرة من العلماء في إنتاج كل ما من شأنه إمداد الحياة المحيطة بنا بوافر من وسائل الارتقاء .

ولكن هذه المنجزات العظيمة المغيرة لأساليب الحياة لا تعد طفرة عبقرية تتجاوز المعطيات السائدة كما هي الحال في السابق بل هي امتداد واستمرار لها .

ولذا فثمة الكثير ممن التبس عليه مفهوم العبقرية ، فنحن عادة نطلقها على كل مفكر ، وعلى كل عمل متميز ، بينما هناك تدرج في هذا المفهوم .

ولذا ينبغي علي أن أوضح ، فالمقصود بالحديث عن العبقرية تلك المطلقة التأثير التي يتغير بها وجه الإنسانية تغيرا جذريا غير مسبوق ، مثل تلك الأفكار التي أتى بها (انشتاين) مكتشف قوانين النسبية أو

(ارفين شرودنجر) مكتشف نظرية الكم أو الحاسوب وغيرها من الثورات العلمية التي يتعلق تأثيرها في تحسين البيئة لما تأتي به من تحسينات تكنولوجية تؤدي إلى رفاهية الإنسان، ولكن الأكثر تأثيرا والأهم من كل ما مضى هي الثورة البيوجزيئية التي تضيف تغير التاريخ البيولوجي للإنسان تغييرا جذريا ينسف تركيبته الجينية ويعبث بخليته الطبيعية ، فتتغير مسيرة تاريخه الوضعي كالعلاقات الاجتماعية ، أو مسيرة تاريخه الطبيعي كروابط الدم للإنسان ، مستخدمة تلك الأفكار التي لا يمكن نسيانها أو إهمالها عبر تعاقب القرون ، مثل ابتداع فكرة الاستنساخ التي يمكن إدراجها في باب العبقريات السالبة ، التي ستكون الأعمق في ضرب معول التغيير في الحياة الإنسانية ، ليس فقط ذلك الرقي في صحته البدنية والعقلية وإطالة حياته ، وإنما سيكون تغيرا يطال أنماط العلاقات والروابط الاجتماعية التي كانت تحد وفق معطيات إطار من التشريعات الوضعية أو الدينية ، فسيكون التغير في كل المفاهيم الاجتماعية والسلوكية السائدة ، سوف تنسف كل العلاقات التي تربط الإنسان بالآخر نسفا لا يبقي ولا يذر ، ليس فقط القوانين والأعراف المستتبة منذ آلاف القرون ، بل سوف يشمل فصم علاقات القربى المرتبطة بالدم ، لأنه

سيضرب في أعماق التركيبة البيولوجية للإنسان ويقتلع الكثير من تركيبها الجذري مُدخلا عليها تعديلات لروابط بيولوجية جديدة أكثر تلازما وحميمية من تلك الروابط التي نعرفها والتي ستبدو لمن يعقبنا من البشر بائدة تجاوزها الزمن .

كل ذلك سيحدث عند اشتقاق الإنسان من نفسه.

أجل ، سوف يورث الاستنساخ تغيرا جذريا نستشرف عمقه منذ الآن ، سوف يمتد كالأخطبوط إلى التركيبة الجينية للكائن الحي من حيوان أو نبات ، يضرب بمعوله أعمق الجذور ترسخا ، وهي تركيبة الجين الحية على مستوى الخلقة الطبيعية للكائن الحي .

وإذ نظرنا إلى الإمكانيات المتاحة الرؤية ، حسب المعطيات المتوقع حصولها من عملية الاستنساخ ، فإننا سوف نرى أن المرأة قد تنجب نسخة لزوجها ، وبما أن هذه النسخة نشأت من جينة الزوج ، فإنها تصبح امتدادا له ، وبهذا ترتبط الزوجة .مع زوجها بعلاقة الوالدة مع المولود ، وهي علاقة تختلف عن الأمومة ، أوقد تنجب الابنة والدها ، فتكون له الابنة والوالدة في آن واحد ، أو قد تكون أختا لجدها في حال أنجبت الأم أباها ، وغير ذلك كثير من تشعبات الأقارب المختلفين عن المألوف بسبب نفس المعطيات السابق ذكرها .

وما يترتب على ذلك سوف ينتج تغير لا حدود له في علاقات القربى بين البشر ، ونتيجة لذلك أيضا ستجب وتلغى الكثير من القيم الأخلاقية التي تعارف عليها الناس ، أو تلك التي أتت بها التعاليم الدينية ، من أمور تشريعية كالمواريث وعلاقات النسب فقد تكون الزوجة أختا لزوجها بالولادة وليس بالأمومة إذا حملت أمها بنسخة ذلك الزوج ، وغير ذلك الكثير من مثل تلك التشعبات التي يصعب تتبعها .

أما ما يحدث في الجانب الآخر من ذلك التغير ، فربما يكون الأكثر سوءا من كل ما مضى .

والآن فلنر إلى أي مدى يبلغ ذلك السوء .

انقـــراض الرجـــل :

من البداهـة معـرفـة أن الغـرائز ثابتـة ثبـاتـا أزليـا في طبيعة التركيب الجيني للكائن الحي منذ بدء الخليقة ، وأنه لم يحـدث ولا يمكن أن يحـدث عليـهـا تغـيـر أو تبـدل ينتج عن تطور تأتي به تلك الطبيعـة منذ خلق الإنسـان وحـتى عصـرنا هذا وإلى الأزل حـسب مفـهـوم الطبيعة ذاتها .

ولكن عند تدخل الإنسان في عمل هذه الطبيعة ، أي عنـد حـدوث عـمليـات الاسـتنسـاخ كـابتـداع إنسـاني وبوسائله الخاصة سوف يحدث ما لا يمكن تصوره من الأمور التي لن تظهر بصورتها الجلية إلا عند استتباب الأمـر لهذا الابتـداع على نطاق واسع ، سـوف تتـلاشى الغـريزة الجنسيـة لدى المرأة والرجل ، وإذا كان يبدو في البـدايـة أن لا غنى للمـسـتـنسـخ الأنثى عـن مـادة السيتوبلازم الموجودة في ذيل الخلية المنوية لدى الرجل لإتمام عمليـة الحياة * ، فـإنها في النهاية سوف تتوصل طبيا إلى ما يعوض عنها لكي تستقل بذاتها ، حين ذاك تحـدث الفـرقـة البـيـولوجـيـة بين الطرفـين ، وعند ذاك سـوف يكون استـغنائها تـامـا عن الرجل، خـاصـة إذا كـانت الأجيال المستنسخة من الفـرد تتعاقب بمتـوالية مطردة (مـسـتنسخ من مـسـتنسخ) ولمدة طويلـة من الزمن وعلى

* مادة لا تحمل مورثات ، وانما تعمل على تغذية الجنين فى بدء تكوينه.

مـدى تعـاقـب الأجيـال المسـتنسـخـة مـن الفـرد . عـنـدئـذ سـيحدث المستحيل أو مـا كنا نظنه مستحيلا ، سوف تتحول حتما بعض غرائز الإنسان الجديد (المستنسخ) إلى منحى آخر منحرفة انحرافا واسعا عن مسارها الطبيعي ليس كما في الإنسان العادي ، وذلك لخدمة اغراضها الجديدة وتتاج للاستغناء عن بعض الأغراض الأخرى التي لم تعد في حاجة إليها كعملية التكاثر الطبيعي.

اجل سوف يطرأ تغيّر جذري ، كان من الممكن الاّ يطرأ أبدا ، لو لم تستحدث الفكرة التي ابتدعتها المخيلة العبقرية للإنسان عن الاستنساخ.

ولكن بما أنها استحدثت فلا شك بأنها سوف تحدث ذلك التغير ، بل تضيف إليه المزيد .

وأول هذه التغيرات وأعمقها ضربا في جذور الخلقة الإنسانية ، أن غريزة استمرارية بقاء المستنسخ الفرد ، سوف تتحول إلى منحى أخر غير المنحى السابق لها .

نحن نعرف بشكل واضح وجلي لا لبس فيه ، أن الغرض الأساسي من الغريزة الجنسية هي الحفاظ على استمرارية بقاء الكائن الحي ، أو السعي إلى استمرارية بقاء النوع ، فهذا هو الهدف الأسمى الذي كان وما زال يسم وجودنا .

ولكن بعد أن تستحدث وسيلة أخرى لاستمرارية البقاء لا يعد لتلك الغريزة تلك الأهمية العظمى في الكينونة ما الحاجة إليها ؟ بعد أن فقدت وظيفتها الأساسية ولم تعد تخدم الكائن الحي في استمرارية وجوده.

إذن ، سوف تُمّحى هذه الغريزة وتلغى مع كافة الصفات الملازمة لها ، كالعلاقة العاطفية التي تنشأ بين الذكر والأنثى في اعمق خصوصياتها وما يجاورها من التجاذب بمجمله بين الأحياء أو بتفاصيله الخاصة لدى الإنسان من حب وغرام وميل وانجذاب ، تلك الصفات الكامنة في طبيعة ذلك المخلوق الراقي والتي كان الهدف منها خدمة تلك الغريزة ، سواء كان ذلك الإنسان واعيا لما يخالجه أو لم يكن .

وعلى الرغم من أن تلك المشاعر والعواطف وحدها هي التي تعطيه صفاته الأشد أهمية لتحقيق بشريته إلا أنها لم توجد لذاتها لو لم تخدم ذلك الهدف .

ولكن عند استتباب الأمر للاستنساخ البشري وبطريقة متوالية مطردة يفقد ذلك الكائن الراقي هذا الجزء المهم الذي يحقق إنسانيته ، ويفقد تلك الخواص المتعلقة بالمشاعر التي تميزه عن بقية الحيوانات ، بعد أن بات في غير حاجة إلى تلك الأمور على الإطلاق .

أجل ، سوف تتحول غريزة استمرارية بقائه إلى

عملية الاستنساخ بعد توالي نسخ الفرد نسخا متواليا مطردا، سيؤدي ذلك إلى فقدان غريزة بقائه الطبيعية بالتوالد الطبيعي كما كنا مستمرين عليه منذ الأزل ، متحولة إلى منحى (التكاثر بالنسخ) .

إن عملية الاستنساخ ستقدم له التعويض الأكثر حميمية ومتعة ، لأن الإنسان المستنسخ أقرب إلى المنسوخ منه من ابنه ، إنه ذاته ، إذن فاستمرارية بقائه في مثل هذه الحالة تكون ضارية في عمق جذور النفس.

وتبعا لذلك فسوف يفقد غريزته الجنسية في فترة تالية من توالي نسخه تطول أو تقصر من تاريخه ، وربما يكون ذلك بعد بهتانها تدرجا.

سوف تندثر الغريزة الجنسية من الأحياء كافة إذا عم النسخ ويندثر معها كل ما يتبعها من الأمور القائمة على خدمتها كالعواطف لدى الإنسان ، و ما له علاقة بها من مفاهيم التفكير وأساليب إبداء المشاعر ولأمور التي تساعد على تحفيز العاطفة ، كالشعر الغزلي والقصص الرومانسية التي تتحدث عن العلاقات العاطفية كالحب والوله وسهر الليالي والتفكير في المعشوق ، وكل المواصفات الجمالية التي تتعلق بها ، و سوف يلغى من قواميس حياتهم بكل تفرعاتها النظرية والعملية ، وما ينطق به وما يقرأ

منه وكل ما يشير إلى ما كان عليه الإنسان من شئون وشجون المشاعر، فيعودن بعد اندثار هذه الأمور المجملة للعلاقات إلى مساق حياة القطيع المتخصص بذاته.

لا ريب، ستكون هناك قطعان متماسكة، كل قطيع مكون من نسخ الفرد يتعاون مجموع أفراد نسخه بمعزل عن قطعان أخرى هي أيضا تزاول شأنها بمفردها .

وسوف يتبع ذلك قطع أو اندثار تلك العلاقات التي تربط المرء بعمه أو خاله أو ابيه أو امه ، التي أضحت لا لزوم لها بعد أن أستعيض عنها بعلاقة الفرد بذاته المتعددة فحسب كأفرع الشجرة الواحدة .

ولذلك فلن يحسن أولئك الجدد التفكير بمثل تلك العلاقات ولن يفهموها ، وبالتالي لن يستطيعوا التعبير عنها ، بل سوف تبدو لهم كأنها حديث عن خارج الذات الإنسانية .

وحينذاك عندما يقرءون عنها في الكتب القديمة مما خلفه الإنسان الطبيعي ، ربما لن يفهموا المغزى من اصطلاحات أمثال ، (أخوة وأخوات أو أعمام و اخوال أو أباء وأمهات) ، ستبدو لهم غريبة في تسمية امور أغرب منها .

وقد يستتبع ذلك ما هو أبشع .

إذ ما سوف يئول إليه الأمر في النهاية سيكون أشد فظاعة مما نتصوره أو نتخيله في روايات الخيال العلمي .

ستؤدي تلك الحال إلى انقراض أحد جزاي الإنسانية الأقل قدرة على الصمود في مواجهة هذه التقنية الجديدة التي ستطرأ على البشرية ، فسوف ينقرض الرجل .

فالمرأة التي فقدت غرائزها مثلها مثله ، فأنها تفقد إلى جانب ذلك اعتمادها على الرجل في استمرارية بقائها ، وبعد أن يفقد الرجل أهمية دوره في استمرارية الحياة بالنسبة للمرأة ، لم يعد لهذه الأخيرة ما تريده منه ، وقد أمست في غنى عنه ، بعد أن باتت في استطاعتها استمرار البقاء من دونه ، وما حاجتها إليه؟ لكي تخدمه وتتحمل عبء حمل نسخه ، بعد أن أصبح في ميسورها مكاثرة نفسها بنفسها وبالعدد الذي تريده .

وبما أن الرجل حتى وأن تحولت غرائزه إلى منحى الاستنساخ فهو لن يستطيع حمل توائمه ، إذن فهو لا يزال في حاجة إلى المرأة ، أو إلى رحمها بالذات .

بيد إننا لن نسهب فيما سوف يحصل بين الرجل

والمرأة من نزاع متوقع حدوثه لكي يعيد الرجل سيطرته على المرأة من جديد ، فالرجل مهما تغير جينيا جراء عملية الاستنساخ فليس هناك ما يشير إلى أن هذا التغير سوف يطال اتصافه بالقوة العضلية ، ثم إن المسائلة بقاء أو فناء، فلا سبيل إلى المهادنة ، ثم ما هو السبيل إلى تلك المهادنة ، بعد أن فقدت الكلمات العاطفية وما يتبعها من ممارسات التودد تأثيرها لدى الطرفين .

لذا فإن الرجل في هذه الحالة الميئوس منها لن يتورع عن محاولة إخضاع المرأة بالقوة الجبرية لحمل نسخه .

وستكون الحرب مختلفة عما نعهده منها ، فشتان بين ما يطلبه الطرفان من أهداف ، فالرجل يريد الغلبة للسيطرة على المرأة وإخضاعها للغاية التي يريدها منها وهي حمل توائمه ، وليس بهدف تدميرها .

والمرأة تريد الغلبة للقضاء عليه وإقصائه التام من الحياة برمتها ، فهو لم يعد ذي شأن لها ، خاصة بعد محاولاته إخضاعها لخدمته التي تشكل عبئا عليها .

وبما أن القوة التي تهدف إلى التدمير الكامل تكون لها الغلبة في مطلق الأحوال ، لذا لنا أن نتخيل لمن يعقد له لواء النصر .

وبعد هذا سوف يحدث تغيير في الحياة ليس فيما تحدثه من مسببات الحياة ، بل في الأسباب التي تحدثها لنفسها ، فبعد أن كان يحدث التكاثر النوعي للإنسان بجزأين يتكاملان تكاملا حتميا ، أضحى الأمر اكثر خصوصية ووحدانية ، وربما أكثر لذة لدى الإنسان من تكاثر النوع.

إن تحقيق استمرارية ذات الجينة المفردة بكل تفاصيلها لا يشارك بها مشارك ، دون ريب سوف تجلب السرور لصاحبها بصورة أوفر لاستمرارية بقائه الذاتي بكل خصائصه ، ستكون أكثر من تلك البهجة التي كان يستشعرها المرء لمولد أبنائه.

وحينئذ يعم التكاثر الفردي.

ويا لهول ما سيحدث نتيجة لذلك مادامت النزعات باتت شديدة الفردانية ، فهذا سوف يؤدي إلى ترسّخ الأنانية التي ستضرب جذورها في قاع النفس البشرية، وسوف تتلاشى أثرة الوالدين لأبنائهم أو أقربائهم كما كان في السابق ، إذ لم يعد لهم وجود ، وسوف تتقطع الأسباب بالعلاقات الزوجية وتتلاشى هذه الصفة في المجتمع البشري حينذاك ، إذ ليس ثمة من يدعى بالولدين من الأصل ، فلأثرة للنفس المتعددة والعناية بها ومنها ، وسوف يبات الإنسان ويصبح بدون أقارب لا أبناء ولا أخوة ولا عمات ولا خالات بالمعنى المتعارف

عليه الآن ، فالذكر اب وابن نفسه وأخو وعم نفسه ، والأنثى أم وابنة نفسها وأخت وخالة نفسها ، باستمرارية لا تريم ، وسوف يجد الإنسان في هذه العلاقات العوض عن كل ما يمكن أن يمت له بصلة الرحم على غرار ما في تاريخه القديم .

فالأم لن تعرف لها ولدا ولا عما ولا خالا ، سيكون لها وفرة من نسخها البنات وستكون لها وفرة من الأخوات والخالات بل ووفرة من الوالدات ، في حال مجيئهن كلهن مما نسخته من جينتها ، وحملت بهن نساء أخريات ، ولكن لن تعرف ما يسمى بالاخوة أو الأعمام والأخوال من الذكور، وبطبيعة الحال لن يكون لها أب ، ولذا ستكون علاقات القربى الناتجة من التوالد المتشعب للجين الواحد مختلفة عن تلك العلاقات الطبيعية ، لن تكون بالمفهوم الذي نمنطقه ، وبالتالي لن يعرف كيفية تنظيمه في تسلسل نحن نعرفه منذ الأزل ، كما هو الحال في الحياة الاعتيادية ، ويستحيل أن يفك تشابك تلك العلاقات أي منظم للقوانين أو التشريعات ، بسبب بسيط لكون أن كل هؤلاء الأقارب هم في الأصل نفسها ، أو هو نفسه قبل انقراضه.

وتحدث الكارثة وتتحدد بصورة دقيقة وتعرف كل أبعادها عندما يتعدد الفرد بغزارة ، فيغزو المكان

ويحدث مما لابد من حدوثه ، فيشب الصراع على شبر من الأرض لموطئ قدم لكل فرد متعدد ، وليس لتعداد مختلف الأفراد كما هو حادث الآن ، وربما يكون الفرد جيشا من نفسه يحارب جيوشا نشأت من فرد آخر ، وحينذاك تتغير أساليب التفكير ومحور الاهتمامات ، وتتبدى ظواهرها في السجالات التي ستتناولها الأحاديث وفي البحوث والدراسات ، فبدلا من الحديث عن عولمة الإنسان الطبيعي سينقلب الحال إلى سجال يشير إلى فردية الإنسان المستقبلي ، وهكذا يؤدي الأمر من النقيض إلى النقيض ، والحديث عنها يطول ويطول .

فهذا مثال لما تستجلبه العبقرية السالبة من نتائج كارثية على الإنسان فيجر إلى منعطفات فكرية غير مطلقة الإشراق .

أما نتائج العبقرية الموجبة من التقدم العلمي فلا داع لذكرها لأن نتائجها واضحة .

ما جرنا إلى هذا الاستطراد الذي ناء بنا عن التركيز على بعض صفات الفكر الإنساني ، هو رغبتنا في إلقاء بصيص من الضوء على بعض مظاهر أساسية في جدلية ذلك الفكر التي تؤدي أحيانا إلى ظهور العبقرية السالبة نتيجة لما يعتمل في العقل من صراع الأفكار التي تسير وفق طريق لا يخدم مصلحة الإنسان، فيكبا بها من حيث يريد النهوض .

جدلية الذات المفكرة:

لنتفق أولا على ما يراد بكلمة (جدلية) ، فإذا اعتبرناها تصارعا للأفكار ، لإثبات أكثرها موضوعية مؤدية إلى عمليات تطور قدرة العقل على التفكير ، أي بروز العبقرية العامة ، أو ما يقارب لها ، سواء كانت في الاتجاه الإيجابي أو السلبي كما آنف ذكره ، أو قد لا تعدو أن تكون تصارعا لتداخلات فكرية عديدة ، قد يكون البعض منها خياليا لتصور معطيات بدهية كانت موجودة في الطبيعة ، ولكنها لم تطرا على أذهان الغير ، وغير معتمدة على أسانيد مبرهنة يمكن من السهولة اكتشافها ، ولكنها تسعى إلى تطوير شيئا ما ، وكمثال للتبسيط فالكهرباء موجودة في الطبيعة منذ الأزل ، وكذلك الأثير الذي يحمل الموجات الصوتية والصورة التي تنتقل عبر آلاف الأميال وكموم الطاقة التي كانت تُظن إنها خطا متصلا قبل أن تكتشف طبيعتها ، وقدرة الحواسيب الفذة المبتكرة ، والتشكيلة البيوجزيئية المكتشفة حديثا ، ولكننا لم نستخدم الإنارة بالكهرباء ، ولم نستعمل الهاتف للتحدث عن بعد ، ولم نشاهد المرئيات عن طريق التلفاز الرقمي ولم نبدأ بنسخ الكائن الحي أو تحسينه قبل مجيء أولئك شديدي الذكاء الذين وجدوا بسبب جدليتهم الفكرية في ذات

عقولهم ، ما عثروا عليه من صيغ عوامل إظهارها لنا ، وما يقال عن التطبيقات العملية المبدعة يقال أيضا عن الصيغ المبدعة للفكرة المجردة .

و قد تبدو لنا تلك الأفكار ، وكأنها تفرض نفسها على المرء ، أو كأنها سمة طبيعية فيه ، فهي كالنبع الفائض ليست بها حاجة إلى أدوات الحفر .

ولذا فعنصر الاختيار البحثي غالبا لا يكون متعمدا ، أو مرتبا له مسبقا . ولكن عندما يفيض تبدو الحاجة إلى قنوات ترتب له مجراه ، ومن هنا تأتي الجدلية مع الذات المفكرة ، لتنظيم طرق الموضوع ، ومن ثم استنباط القيمة الحقيقية للفكرة التي تؤدي إلى التطور ، إذا كانت الذات المفكرة تريد من طرحها ذالك فكرا معينا في منحى من مناحي الحياة المختلفة ، كالطروحات الفلسفية المتباينة التي تخوض في جدليات مختلفة ، تريد منها اتخاذ منحى خاص بها ، أو أي استنباطات لأفكار علمية قد تؤدي في النهاية إلى اكتشاف حقائق طبيعية يفاد منها ، فلا بد عندئذ أن تطرأ الحاجة الملحة للجدلية مع الذات ، قبل أن يلقي المفكر مرساته في هذا المنحى أو ذاك .

ومن هذا نتبين أن الهدف من الأطروحات المعينة قد لا يرسم بوضوح تام في بدء مراودته لذهن المفكر ، وقبل الانتهاء من ذلك التصارع لتلك الأفكار .

وأيضا من حالة الاستقراء لطرائق التفكير الإنساني، نرى أن هذه الحالات تنطبق على كل حالة فكرية ، سواء كانت نابعة من أولئك المنظرين كتابة ، أو ممن يحاولون إيجاد التطبيق العملي لأفكارهم ، وما موالاة هؤلاء لعمليات التجارب إلا نتيجة لصراع احتمالات عدة للإنجاز التطبيقي لفكرة ملحة ، بدت لهم مع ما يرافقها من تشويش في اثناء التطبيق ، قبل الوصول إلى الوضوح في الرؤية لموضوعها .

إذن الفكر الإنساني مهما لمع وبهرنا بقدرته على الاستنباط والاكتشاف فأنه غير قادر على العمل ببداهة الأفكار ، فدائما لا بد له من إخضاعها لجدلية ما بحسب نوعها ، وهذا دليل عجز فيه ومحدودية في مجال رؤيته لأول وهلة .

أجل ، ففي هذه الحالة ، وفيما يبدو من بعض ملاحظات فعل العقل الإنساني من بدء نشوئه ، وهو في أوليات عملياته الذهنية وحتى يومنا هذا يمكن أن يرى من استقراء لمعطياته الفكرية ، إنه يبدأ بفيض تخيلي ، تقل أو تكثر نسبة ما يشوبه من اضطراب قبل وضوح الرؤية ، ومن ثم يتخذ قراره في السير وفق نهج معين فضّله على غيره ، بغض النظر عما نراه نحن من قيمة فكريه لتلك العمليات الذهنية الأولية التي قد

تعلو أو تنخفض بحسب معطيات القدرة لذلك الفكر على مرّ تواتر الزمن على الإنسان .

بيد أنه حالما يتيسر نظم خيوط الصيغ الفكرية التي تتملك الفرد حين ذاك ، وتكون ملازمة له في غدوه ورواحه في ذلك الوقت بالذات شاعرا بالمتعة لوجوده في ذلك المجال الذي من خلاله يستطيع إظهار ما يخالجه من أفكار ، فيكتب معبرا عنها إذا كان كاتبا أو يطبقها عمليا ما وجد إلى ذلك سبيلا من خلال تجاريه ، فيبدو عندئذ كالنحات عندما يسعى إلى تهذيب منحوته وإلباسه حلة قشيبة تليق بمن سيلقي نظرة عليه .

وهكذا نجد كيفية تكوّن الماهية للأطروحات الفكرية الجديدة تأتي بإضاءتها بعد بدء تشكيلها وانتظامها ، وهي في ذلك مثل أية ماهية أخرى ، الوجود أولا حتى وإن كان مشوشا ، ثم ماهية منظمة لذلك الوجود ، بعد أخذ مساره التطوري وبات لا يعوزه شيء فيما يُدرَك ، ومن ذلك نرى أن العالم الداخلي الذي تهيم به الذات المفكرة لابد أن يكون جزء من عالمها الخارجي ، وأن ما نراه من أفعالها لا يعدو كونه انعكاسات ظاهرة لتلك التفاعلات الفكرية غير المرئية .

إذن فتلك الذات من خلق ذلك العالم الخارجي من الأفكار بمألوفيتها أو غرابتها ، وأن ما تطرحه حول

عالمها الظاهر في شتى حالاتها سواء كانت فكرة شفافة لا تلمس أو مادة صلبه خضعت لتجارب معملية ، هي في النهاية نتاج لتلك الجدلية الخفية الخاصة بالذات المفكرة غير منفصلة عنها إلى أن تخرج إلى التعامل الظاهر في حلتها المادية .

وأن ما ينعكس بالنور من اثارها على ما يبدو من المفكر ليس إلا بسبب من قوة طغيان زخمها عليه حتى وأن كانت مما يستوجب حالة من التكتم ، ولذا نرى أن الكثير من المفكرين يتعرضون إلى الأذى بسبب مما يشع من أفكارهم إذا كانت مخالفة أو متنافرة مع الواقع الذي يحيط بهم ، ومع كل ما يتعرضون له من مخاطر إلا أنهم لا يستطيعون التوقف عن الإفصاح عما يجول في أذهانهم حتى لو كان باستعمال أدوات الموارية كالرمز أو القول المبطن ، إذ إن غليانهم الداخلي يفوق ما لديهم من قوة الاحتمال .

متى يلتقي المفكر بجد ليته مع ذاته في عالمه الخاص:

كثيرا ما يخطئ البعض منا حين يظن أن لذلك وقتا محددا جيئة وذهابا ، وأن ثمة عادات معينة يتعين على المفكر اتباعها لكي تبدأ جد ليته مع ذاته في الظهور، باستثناء من قسر نفسه على مزاولة طقوس معينة حتى باتت عادة له ، لا يستطيع من غيرها شيئا ، وإنما الحقيقة المحضة غير ذلك تماما لمن كان حرا في عاداته لا ينشد التفخيم والظهور أمام نفسه قبل الآخرين بمظهر العناية والتهيؤ لما ينوي فعله .

و في كلتا من الحالتين فإن تلك الرؤى لا تتوقف في انتظار إقامة الطقوس .

عدا عن ذلك فإن من طبيعة العقل النشط أن تكون جدليته الذهنية قائمة باستمرار خاصة عندما يكون المفكر يمتلك قدرة كبيرة وعلى درجة عالية من الموهبة لمنحى ما من المناحي التي تتطلبها حياته الفكرية ، يندفع إليها بفعل زخم الغليان الذي يعتريه لأن الذات الإنسانية في حالة توهجها لا يعوق انطلاقتها شيء ، سواء ظهرت آثار تلك الرؤى للعيان عن طريق النتاج الملموس أو بقيت مخبوءة في ذهن المفكر لا يعلم بها سواه .

إنها في ذلك أشبه بالبركان ، فإما أن يكون خامدا لا تأثير له ، وإما أن تكون درجة زخمه مرتفعة ، فنراه يهدر بفيضه وينثر خارجا .

فإن لم يحدث تسجيل أو استفادة بشكل ما من ذلك الفيض الفكري الهادر فسوف يضيع ويلفه النسيان .

و لذا كم من الأفكار اللامعة والرؤى الجميلة التي قد تساهم في رفع منسوب الحضارة ضاعت ولم يسمع بها غير أصحابها .

أما في حالة ركود الذهن لأسباب معينة أدت به إلى فعالية منخفضة في قدرته الفكرية سواء كانت عارضة وغير مؤثرة فيه سلبا على المدى الطويل كحالة المرض أو غيره من المعوقات ، أو كانت حالة مستديمة ملازمة له تماما طيلة حياته كحالة العته ، ففي كلتا الحالتين تطرح أفكار تلك الذات إلى خارج دائرة الفكر الفعال ، ويهمل القياس عليها .

و لكن نحن سوف نبقى مع قدرات الإنسان السوي لنرى ما يصنعه خياله من تلك القدرات .

الحيـــوان المتخيـــل:

لقد قيل قديما (إن الإنسان حيوان ناطق) ، ولكن في الحقيقة انه قبل أن ينطق كان الحيوان الوحيد المتخيل ، فلولا تلك القدرة على التخيل لما استطاع النطق واستعمال الرموز الصوتية والاتفاق عليها للدلالة على الكلام الذي سهل له عمليات التفاهم مع غيره من البشر، والذي تم به ربط حبال التواصل مع هذا الغير ليتخلص من وحدانيته ، ويندمج في خضم وسطه البشري الذي قد يساعده في حل مشكلات قد تستعصي عليه لو كان بمفرده.

فضلا عن ذلك فإنه عن طريق ذلك التواصل أمكنه أن يكوّن مجرى فكريا يضم أفراده كمجموع لهذا الحيوان النوعي ويميزه عن غيره من الحيوانات .

فهذا الاستعمال المرتب للغة حتى وهي في بداية استخدامها الضيق للرموز يعتبر أول نتاج للمخيلة وهي أول عملية إبداع للإنسان ناجم عن فاعلية قدرته على التخيل .

ويرافق خاصية القدرة على التخيّل في العقل الإنساني خاصية أخرى وهي قابلية ذلك الخيال على المرونة فهو يتمدد بقدر ما نشاء ، فكل خيال نمتطيه يحلق بنا إلى خيال أبعد من معطياته وسواء حققنا هذه المعطيات أم لم نحققها فهذا لا يبخسها فائدتها.

ومن هذا ندرك أنه لولا هاتان الخاصتان المذهلتان (الخيال ومرونته) لم تكن الحياة كما هي الآن ، ولأصبحنا وامسينا كما نحن عليه منذ بدايتنا الأولى ، إذ لن يكون في مقدورنا أن نحرك أفكارنا قيد انملة عن أدنى درجة من مزاولة الحياة الحيوانية الدنيا .

وبما أن المصدر الأوحد للإبداع هو خيال الإنسان ، فلذلك كان لذاك التواصل بالنطق الأثر الفعال في إثراء أخيلة عديدة ينتجها الفكر الإنساني ، حتى تلك التي نراها بعيدة عن منطقية العقل وغير قابلة للتحقيق وتعتبر مغالاة في التصور ، فإنها على الرغم من ذلك تساعد على تنمية قدرات الفكر .

ومن يدري ؟ فإن ما قد نراه اليوم مستحيلا قد نراه لا يستعصي على التطبيق غدا .

ولذا فنحن بأخيلتنا نتخطى العقبات فلا مستحيل يبدو أمامنا ، فبطبيعة الحال نحلم ونحن يقظين كما نريد ، نخترق الجدار ولا تستعصي علينا صلابته فيكون من السهولة النفاذ منه ، ونغوص في باطن الأرض دون استعمال آلة للحفر ، ونخوض في الحمم ولا نحترق .

إنها أحلام لا تحدها حدود ، تحققها وسائل متخيلة مهما كانت عسيرة على التطبيق الواقعي .

ومع أن هذه الأحلام المحلقة بعيدة عن متناول

الواقع ، إلا ان ثمة احلاما أخرى يمكن تحقيقها ، ولكنها لا تعطي تأثيرات تطورية بالغة العمق كما في النوع الأول ، وذلك عندما نستخدم تلك الأخيلة لرصد الواقع المحيط بنا فحسب ، ونبني عليه بأخيلتنا دون أن نخرج من إطاره ، أو نتجاوز نطاقه وإنما نصول ونجول في فلكه فحسب ، فتكون مجالاتنا لا تعدو الخلط والمزج باحتمالات يحدها ذلك الواقع.

ولكن من حسن حظ الإنسان أيضا أن ثمة أخيلة أخرى تلك التي تخرج عن ذلك الواقع الآني ، و تحوي ضربا من عناصر الارتقاء بواقع الإنسان ، وهي الأخيلة العلمية القابلة للتطبيق ، أو الفكرية المجردة كالنظريات الاستدلالية أو الاستقرائية التي تضفي صبغتها على ذلك الواقع دافعة به إلى الإمام .

وإذا علمنا أنه لا سند لسلم لرقي إلا عن طريق تلك الأحلام وما نتوقعه منها .

لذا نرى أن الإنسان يركب دوما موجة التطور الطبيعي في مسيرة الحياة الواقعية ولكنه لا يني يقدم إسهاماته التخيلية لدفعها بتسارع أكثر مستخدما السلاح الذي يجيده ، خياله العلمي التطبيقي أو الفكري المجرد .

وبما أن التطور غالبا لا يكون ذا أثر فعال إلا إذا اتخذ الجانب التطبيقي ، لذا فغالبا ما تكون تلك

الأحلام العلمية الأسبق في دفع عجلة النمو التطوري ، فطالما صنع العلم المتخيل إرهاصاته ، فتأتي الحقيقة العلمية متأثرة به فتحققه.

وكمثال على ذلك ما يبدو لنا من أحلام القصص العلمية الأكثر مساهمة بذلك التطور ، فحتى في بدء نشوئها ، عندما كانت تقوم بفرض النتائج بصورة مباشرة متجنبة الخوض في تفاصيل التقنيات العلمية مثل قصة (آلة الزمن) لجورج ويلز او (من الأرض إلى القمر) لجول فرن ، فعلى الرغم من بساطة تقنيتهما العلمية إلا أنهما أثرتا الواقع العملي بتوقعاتهما ، فظهر الكثير من الاختراعات المتبنية لأفكارهما فاخترعت وسائل النقل السريعة كالمركبات الفضائية مقلصة الزمن لعبور المسافات الطويلة إلى ما لا يتصور من نسبته في حال استعمال قدرات الإنسان الطبيعية ، أما نبوءة جول فرن فقد تحققت مائة بالمائة عند نزول أول إنسان على سطح القمر عام ١٩٦٩ .

إذن من باب أولى أن يكون لقصص الخيال العلمي تأثير يتزايد مع مراحل تيار الزمن ، لما تحمله من رؤى لمعطيات تقنية معقدة ، وغالبا ما يكون هذا التأثير مواكبا للنهضة المعاصرة لها ولكن بأفاق أوسع من التقنية العلمية القائمة .

وبما أن أحلام الخيال العلمي الأسرع في انطلاقتها

من التطبيق العملي للعلوم ، لذا فهي دائما القائد المتصدر لمعظم الاختراعات بنبوءاتها .

وحينئذ يصل الإنسان إلى أقصى ما يتمناه من أحلامه تلك ، التي غالبا ما تكون درجة في سلم ارتقاء البشرية التي لا تهمد في البحث عن درجة أعلى في موقعها لترتقيها ، وهكذا .

ولكن لعل ما يأسف له البشر حقا ، تلك القدرة الأخرى المنتجة لأخيلة معوقة لمسيرتنا نحو التعقل ، تلك التي تنتج منها كبوات عظمى تعرقل مسيرتنا البشرية ، أنها الشوائب المرافقة لأحلامنا .

هي تلك التي تركن إلى الخرافة والسحر والتوقع الغيبي الذي لا يعتمد على سند ذي دلالة يقينية مبنية على معطيات علمية لا تقبل اللبس ، وكأننا بذلك نمارس لعبة فنتازيا على انفسنا دون أن نشعر ، ولذا فنحن نتوقع من تلك الأحلام غير المنطقية نقلة نوعية مستحيلة للواقع المباشر الذي نعيشه ، أو غير المباشر وهو ذلك المستقبل الذي نتمناه . وسوف نتحدث عن ذلك عند إلقاء نظرة على ما يعوق تفكيرنا .

أما الآن سوف نرى ما تسوقه أحلامنا من إبداع لنا .

الإبداع الإنساني:

بعد إمعاننا في طبيعة الفكر الإنساني وطرائقه في عمليات الاستنباط التخيلي ، يأتي الدور للحديث عن الإبداعات الفكرية للإنسان ، ومصادر منابعها ، وهل تلك المنابع أصيلة غير مهجنة ومدجنة ، أو هي إبداعات منقطعة ومجردة مما يتعلق بها من ماضيها وحاضرها المادي والمعنوي ، وهل لها حدود وأسوار لا نستطيع القفز فوقها وتجاوزها إلى ما عداها ، أو هي حرة طليقة لا يحد منها سوى قدرات من يمتلكها.

ولو القينا نظرة مستطلعة سوف نرى أن ما نسميه بالاكتشافات موجودة في الطبيعة قبل أن يجري اكتشافها ، والاختراعات لا يعدو كونها عن خلط وتركيب وتفاعل ومجانسة لمواد موجودة في الطبيعة هي أيضا ، ولكن لم يسبق المخترع إليها أحد ، وكذلك الأفكار ما هي إلا استنباطات سميت مبدعة ، لا لأن صيغها نابعة من فراغ فكري غير موصول بما قبله ، وعما يتوقع أن يأتي من بعده بل لأن المخترع توصل إلى مزج الأفكار السابقة عليه وأستخلص التراكيب المحتملة التي لم تطرق ولملم الأطراف وأتى بها قبل أن يأتي بها أحد قبله .

وإذا أمعنا الفكر في هذه المعاني بتفهم ، نرى أننا نريد الدقة في تحديد المعنى من كلمة (إبداع) ، وسوف

نتبين انها تعني إيجاد شيء غير موجود في الأصل ، اي استحداث أو خلق ما هو غير مخلوق .

لذا فكلمة (إبداع) منقطعة عما قبلها ، ولكن بما أن الحقيقة التي يعرفها عامة الناس غير ذلك ، لذا يمكن اعتبارها مجازية المدلول ، بسبب من أن الفكر الإنساني لا يبدع بمعنى الخلق المحض ، على الإطلاق ، فهو مقيد إلى عناصر خلقته الطبيعية قيد الشيء إلى سلسلة لا تفصم عراها .

إنه مقيد إلى تلك العناصر سواء ما كان منها ذو معطيات فكرية مجردة ، أو عناصر مادية ملموسة ، أو من تضافرهما معا فكانت لهما القدرة على التطبيق العملي ، ففي كل الأحوال لم يؤت بذلك الإبداع من خارج ذات الإنسان نفسه ، أو مما يحيط به من مواد كونية على مدى إدراكه .

فنحن نعلم مع كل ما تقدم ، أن ليس في مقدور الإنسان الانفكاك عن دائرة وجوده مهما اشتط به الخيال فهو يدور في فلكه دوران الحصان المعصوب العينين حول الساقية ، ففكره الإنساني مقيد بسلاسل غير قابلة للكسر، صنعت من مادته ، كطبيعة خلقية فيه ليس من الميسور الخروج عنها ، وبالتالي فإن تطبيقاته لا تبتعد عما يحيط به من واقع ذلك الوجود الطبيعي فهي مشدودة قسريا إليه.

وأن مـا ينتجـه المبدع سـوى مـا كـان منهـا افكار ونظريات مجردة لم يسبقه إليها أحد ، أو تطبيقات عملية فذة كانت له الريادة فيها، ففي أي من الحالتين، لم تأت إليه إلا من جراء استعماله لتلك الطرق الاحتمالية اللانهائية لتمازج تلك الرؤى السابقة على رؤاه وخلط تلك المواد الموجودة في الأصل لإيجاد صيغ نظرية أو تطبيقية غير موجودة من قبل .

ولو كان غير ذلك لما عجز عن إبداع يغاير به طبيعته وما يحيط به ، وذلك باستحداث الجدة المطلقة وخلق ما لم يخلق.

إنه في حقيقة الأمر غير قادر ومستعص عليه كسر القانون الطبيعي الذي يسور قدراته داخل نفسه ذاتها والذي هو أحد تطبيقاته الظاهرة للعيان ظهورا لا لبس فيه.

والجانب السلبي من هذا الموضوع أنه كان من الممكن أن يغدو الإنسان ثابتا ثباتا ازليا لا يستطيع الحراك قيد أنملة في مسيرته نحو الرقي ، لو لم يفطن لتلك الطرائق الاحتمالية اللانهاية في الخلط والتركيب والاشتقاق ثم المجانسة ، التي أعانه عليها خياله وجعله قادرا على إنشاء ما ندعوه بالاختراعات أو الابتكارات ، وكان الأحرى بنا إذا أردنا الدقة في التسمية ، أن ندعوها بالاكتشافات لصيغ فكريه أو

تطبيقية جديدة ، فهذه التسمية ما ينطبق عليها تماما عوضا عن كلمة الاختراع التي تدل على الخلق المطلق .

إذن ثمة ما يحد من سيرنا عن الانطلاق اللانهائي في إبداعنا.

وإذن فنحن ليس في مقدورنا أن نأتي بشيء من فراغ ولن نوجد ما ليس موجودا أصلا.

إذن فعملية الإبداع الحقيقي واستنباط شئ غير موجود في الأصل ، ليس في مكنة الإنسان إيجاده على الإطلاق ، مهما أوتي من قدرة على التفكير والتخيل .

وكما هو مستقرئ من الواقع المحيط بنا ، نرى أن الإبداع الإنساني على إطلاقه هو عبارة عن تراكيب متمازجة ومتداخلة باحتمالات لا تحصى لنفس العناصر الثابتة الموجودة فيما يحيط بنا ، فأدت إلى إيجاد صيغ جديدة لأشياء هي موجودة في أوليات الأصل ، وأن كل ما نراه من تلك الجدة التي نتصورها لتلك الأطروحات المبدعة ، أو الاكتشافات العبقرية أو ما يدور في فلكها من تطبيقات عملية فأدت إلى تسارع في نمو الحضارة الإنسانية ما هي إلا احتمالات لأطروحات كانت مخبوءة الصيغ ، لأنها استعصت على الفكر الإنساني أن يجدها في بدء تناميه وتبلور تطوره.

و أنه إذا مـا قـمنا بتـحليل لتلك الصـيغ المبـتكرة حـديثـا إلى عناصـرها الأولـيـة نراها قـديمة قـدم الدهـر، وأن مـا نراه من جدتها لا يعدو كونه استـخدامـات لتلك العناصـر القـديمة بطرائق مـخـتلفـة مسـتـجدة لأفكار مجردة أو تطبيقية سابقة عليها .

او بالأحـرى ، فـان العـمليـة برمـتـهـا ليسـت قـديمة او جديدة ، فالحيـاة على ما تحويه من مـراحل تطورها ، لا تعـدو مـا يفـعل بهـا من عـمليـات الخلط والتـركـيب والمجـانسـة لموضـوعـات ومـواد مـوجـودة وثابـتـة في تكويناتها الأولية ثباتا أزليا .

إذن والحـالة هذه يمـكننا أن نقـول إن الخـيـال المبـدع سواء كـان علمـيـا أو غيـره مما يمس شئـون الحـيـاة ليس جـديـدا كل الجـدة حـتى لأولئك الرواد ، وأنه لابـد من توطئـة سـابقـة لـكل عـمليـة عـقليـة سـواء كـانت فـكرية مـجـردة أو مـا يطـبق على حيـاة الناس ، كلتـاهمـا لا تتم إلا بخلط وتداخل جـزيئـات لتـراكـمـات مـعرفـيـة ، تمـتـزج وتنصـهـر لتكون رؤى جديدة فـي ذهن المفكر ، لتـفرز بعـد ذلك عـمـلا جـديدا فـي مـجـمله ، ولكنه ليس كـذلك في جزيئاته .

و أذن نخلص إلى أن إبداعات الإنسـان الفكرية والتي تسوقه دائما إلى إبداعات مـادية ، لا يمكن أن تخرج عما

يفهمه من أموره ، وان ليس من الميسور له ، بل من المستحيل عليه استحالة مطلقه الخروج في تطبيقاته العملية ، أو استنباطاته الفكرية عما يحيط به من طبيعة ليس له دخل في صنعها سواء أكان ذلك واقعا حياتيا ، أم فيما يتعامل به من جماد .

أجل ، لا يستطيع الخروج عما تطوله يداه مما يحيط به داخل بيئته الأرضية ، وإن ذهب خارجها فلابد له من اصطناع وسائل مشابهة لها ، تمكنه من مسايرة ذلك الخارج له على نمط حياته.

إذن ما قد جئنا به أو ما قد نجيء به ، لا يعدو كونه إحدى طرائق تلك الاحتمالات اللانهائية ، لا طروحات مخبوءة الصيغ تطرحها طبيعة الحياة عندما تهبنا القدرة على اكتشافها في هذا الكون العجيب.

ونخلص من ذلك ، إلى أن الحقيقة التامة ، تنبئ أن تلك الاكتشافات لم يؤت بها من مواد غير موجودة في الكون أصلا ، ولو كان غير ذلك حقا ، لكنّا ابتدعنا شيئا لا وجود له من قبل ، أي لوصلنا إلى درجة الخلق والإبداع الحقيقي .

وهذا لم ولن يحدث على الإطلاق في زمنّا الحالي بحسب ما نعرفه من قدراتنا الفكرية سواء كان ذلك في الآن الحالي أو في المدى المنظور من المستقبل على

الأقل، بسبب ما نستخدمه من معوقات على أنفسنا تحد من تلك القدرات .

ومع هذا ، فنحن لا نسعى إلى بخس البصيرة النيرة للإنسان ، ونعرف القيمة الحقة لتلك البصائر الكاشفة التي استطاعت اكتشاف تلك الطرائق الفذة ، فاستخدمت أدواتها القديمة لإنتاج أدوات جديدة ، سواء كانت تلك من صنف الأفكار المحضة ، الخادمة فقط للجمال والمتعة ، أو تطبيقية عملية صائرة إلى تطوير وسائل أكثر راحة في الحياة العملية والفكرية للإنسان ، فهي في كلتا الحالتين تحمل في ثناياها ما نزهو به من مخيلة مطردة التغير ، تسعى دوما إلى هدف أفضل ، وإلى مستوى عال من الرقي في حياة البشر .

وهذا القول يقودنا إلى معرفة أن كل أمر وكل موضوع يحمل في ثناياه بذرة تطوره ، وأن ما علينا سوى تطوير أدواتنا الذهنية (الأفكار) لنجد أن كل أمور الحياة في عملية تطور تصاعدية .

وحتى نستمر في تلك العملية التصاعدية التطورية المستديمة ، يتعين علينا أيضا معرفة أكثر حول الطبيعة المحيطة بنا الحبلى بالأمور العظام ، وإنه يتعين علينا أيضا أن نعرف ، إن عجزنا عن إيجاد صيغ

جديدة لأمور أخرى ، فهذا لا يدل إطلاقا على عدم وجودها في الكون الذي نعرفه ، وإنما ذلك يدلل بصورة أكثر على مدى القصور في إدراكنا عن تبيّنها في الوقت الذي لا نعرفها فيه ، ولكن هذا لا يلغي إمكانية إدراكنا لها في وقت ما ، عندما يتيسر لنا فيه نضج معرفي أكثر يصل بنا إلى تلك الصيغ الفكرية المستعصية .

وقد يكون من المؤسي حقا ، اننا قد نستمر في ذلك العجز فترة قد تطول أو تقصر ، ما بين اكتشاف مبدع وآخر مساو له ، إلى أن تتاح لنا الفرصة مرة ثانية ، بمجيء من هو شديد الذكاء ليدلنا عليها .

وبسبب من إيجاد هذه الصيغ الكاشفة لنا مما نجهله ، من عوامل تطور غير موجودة في مجال رؤيتنا ، قبل مجي ذلك المكتشف سميناه مبدعا .

ومن هذا نخلص إلى أنه لو كانت الحال كما من المفترض أن تكون عليه ، أي لو عملنا كل ما من شأنه تهيئة الأجواء لأولئك العباقرة ، لمساعدتهم على اكتشاف أنفسهم ، ومن ثم يدلوننا على المسار الصحيح ، لربما باتت الحضارة في تسارع محض لا تشويه شائبة.

إنَّ هذا أفضل مما لو بقينا في انتظار مجيئهم ،

تبعا لعوامل الصدف ، التي لا ترقى أبدا إلى عوامل الإعداد والترتيب ، فذلك لأن الصدف عادة تتعثر في الأكثر عرضة لها ، وهي في تخبطها الأعمى.

فيقودنا ذلك التخبط إلى ما يفنينا ، عندئذ نتوقف من جديد مع مولود جديد قد لا يبدأ من النقطة التي انتهينا إليها ، وهكذا تقصر خطواتنا وقد تتعثر عن بلوغ المزيد من التطور عند وفاة أي عالم مبدع قام بتسديد خطونا على مسار التطور .

الفنــــاء:

لعل من الغريب المؤسف له حقا ، أننا على الرغم من كل ما نتمتع به من امتياز على موجودات كوكبنا ، إلا أننا نحمل في تراكيب خلقتنا الكثير من العوامل من تلك الثنائية المتناقضة ، فكما نحمل العامل لبذرة الإنماء الناتجة من قدرتنا على التخيل الإيجابي ، نحمل ما يقابلها ، وربما ما يفوقها عددا ، من عوامل بذرات الإفناء لوجودنا الفردي سريع الزوال ، أو وجودنا النوعي سريع التغير الناتج أيضا من قدرتنا على التخيل السلبي .

وبما أن عمليات الهدم في الطبيعة مثل غيرها من عمليات التخريب في أمور البشر فهي دوما اكثر يسرا وسهولة ، ولا تحتاج إلى أدوات معقدة لتزخم فعاليتها ، كما هي الحال دائما في عمليات البناء الأكثر بطئا وسلحفية ، وتحتاج إلى أدوات معرفية معقدة أكثر مما نعرفه ونلاحظه في كوننا لكي نفيد منها .

إذن من الممكن أن يكون تعثرنا بالصدف لعوامل الإفناء لوجودنا أو إيقاف تطورنا أكثر عرضة لنا ، وبنسبة تفوق عدد تعرضنا لعوامل الازدهار والنماء .

وبما أنَّ ما ينطبق على جميع الأمور الحياتية من ألغاز نعجز عن حلها ، يبدو لغز مأساة الوجود الإنساني

أكثر وضوحا لنا كنوع أو كفرد ، الا وهو عدم القدرة على ابتداع صيغ فكرية تحل واقع الفناء .

إلا أننا نعلم أن ذلك العجز ناتج عن ديناميكية حركتنا التي تستهلك الكثير من الأجهزة في أبداننا المنتجة لطاقتنا قبل التوصل إلى نهاية الشوط من أفكارنا ، فيبادرنا الموت عندما نكون في أوج نشاطنا الفكري ، وعندئذ نُصد عن الوصول إلى نهاية التوهج.

ليس هذا فقط ، أن معظمنا يورد الأخر حتفه دون أدنى شعور بالخسارة التي يتعرض لها البشر مادام ذلك الأخر لا يكون أحد اعزانا .

ذالك العجز عن حماية أنفسنا من الفناء ، وهذا التبلد بالنسبة لمأساة غيرنا يجلبا تداعيات لأسئلة محيرة ، ربما تبدو بعيدة عمن لا يكلف نفسه عناء التمحيص ، وهي:

لماذا هذا التفاوت في القدرة على الشعور بالألم بين فنائنا النوعي وفنائنا الفردي ؟ فيتبلد إحساسنا في مأساة غيرنا حتى لو كانوا كثرا، أما على صعيد الوجود المنفرد للذات الإنسانية ، فالمأساة فوق طاقة الاحتمال ، إذ يشتعل بنا الألم بما لا يطاق لمأساتنا الفردية الخاصة؟ مع أن المأساة واحدة.

هل لأن وجودنا النوعي كالسيل المنهمر ، ما إن تغور قطرة داخل التربة ، إلا وتستقدل قطرة أخرى بدلا منها أن لم تكن اكثر مما يخفف من شعورنا بعمق المأساة ؟.

أم إن عدم إحساسنا بتوحد المأساة يعود إلى أن مشاعرنا ما زالت في غلظتها البدائية فلم ترق إلى الدرجة التي تجعلنا نحس بغيرنا كما هو الإحساس نحو أنفسنا ؟

هذا ما أظنه .

وبما أن إحساسنا لا يزال على مثل هذا التبلد ، وخاصة مع من لا نعرفهم كما هي الحال عند اشتعال الحروب ، فهذا ما يخلق المأساة البشرية ، ويجعل خطونا قصيرا نحو التطور .

ولو كان غير ذلك لانتفت النزاعات بين الجماعات والأمم ولتخلصنا مما نحن فيه من معوقات تجعلنا نبدو كأننا نستمرئ مأساتنا البشرية ، فلا نحاول الخلاص مما نحن فيه ، بل ونزيد من ذلك بأن نأتي بالمزيد من المعوقات بإشعال الخلافات التي يقام على أثرها الاقتتال.

وإذا كان هذا التصور خاطئا ، إذن فلماذا تنشب الحروب؟ فتدفع الدولة بجزء من أبنائها للدفاع عن

الجزء الآخر ثم لا نشعر بالأسى لفقد ذلك الجزء إلا على صعيد الفرد إذا كان منا .

إذن ثمة ما يُعيق وعينا ، جاعلا مدى نظرتنا للأمور قصيرة المدى مما يجعلها تقتصر فقط على إحساسنا بذاتنا ، لذا نبقى على ما نحن عليه من الأنانية تلك التي تجعلنا نرى مأساتنا على صعيد وجودنا الفردي الذي لا يعدو كونه تلك القطرة الغائرة ، فتبدو تلك المأساة بعمقها الشديد مهولة واضحة العذاب لنا ولأقربائنا ولا نرى تلك المأساة بعمقها الحقيقي على صعيد وجودنا النوعي حتى لو ضحينا بنصف العالم.

بل والأنكى من ذلك أننا نعتبر مقتلهم تضحية واجبة من الجزء سيئ الحظ ، إلى الجزء المحظوظ .

والسؤال المهم :

من ذاك الذي أعطى صاحب الحظ حظه ؟ ومن ذاك الذي سلب الآخرين حظوظهم ؟ ثم أليس من المجدي الا يكون ثمة سلب من الأساس ؟ لماذا لا تكون تلك المشاعر متساوية ؟ لماذا لا يضن المرء بالألم عن المجموع كما يضن به عن ذاته ؟ .

وبما أنها أسئلة لا أجوبة لها ، لذا فإن الفرد عندما يتم كافة تفاعلات توهجه فيبدع بقدر ما تسعفه قدراته مع احتفاظه بأنانيته وأثرته لنفسه يأتي انطفاؤه ،

فليس بعد الإبداع وهو في طوره المتأخر من الرقي السالب إلا الفناء ، محققا بذلك القول المثبط لأحد الحكماء (ما تم شئ إلا وبدا نقصانه).

إذ إننا ما زلنا اعجز من أن نغير ما في أنفسنا الراكعة دوما تحت أقدام ذاتها ، فلا نرى غيرنا في الوجود إلا من خلالنا .

إننا في الحقيقة في حاجة إلى كل ما يحدّ من تسارعنا نحو الهدم ، ولكن كيف يتأتى لنا ذلك مادمنا نملك مثل تلك الغباوة ومثل تلك الأنانية المجحفة ؟

ما الذي نحتاجه لكي نكون قادرين على تنفيذ ما نرغب به من تغيير لتلك المفاهيم التي تقود إلى تدميرنا الفردي والنوعي وإفناء بعضنا للبعض الآخر، وبجملة مختصرة ما الذي نحتاجه لكي نجعل بعض مفاهيمنا قابلة للتحسن ؟ .

ومن ثم نجعل هذه الكتلة البشرية بمنأى عن التفتت؟

هل نحن في حاجة أكثر إلى عمليات التطور لكي نصل إلى مثل هذه الطرائق في القدرة على التغيير .؟

لا بد أن يكون الجواب كذلك .

وعلى الرغم من أن ذلك الجواب سهل وميسور ، إلا أن ما يبدو من تعقيده الناجم من عدم قدرتنا على التطبيق يجعله عسيرا .

إذ إنه يتطلب منا تغيير مفهوم نظرتنا إلى الإنسان بمجمله ، يتطلب منا أن ننظر إليه وكأنه كتلة واحدة ، وأن نفهم ان اي صدام يأتي من داخلها أو من خارجها لابد أن يعمل على تفتيت أجزائها .

وحتما لابد لهذه النظرة ان يكون لها اثرها فى راحة الفرد أينما يكون ، وبما أننا بمجموعنا من يكون أولئك الأفراد ، إذن لابد للشر إلا أن يطالنا في حالة ذلك الصدام، حتى لو كانت إطالة بعيدة وغير مباشرة ، ولكنها في النهاية ستؤدى بنا إلى التسارع نحو الهاوية.

اذن الا يفترض بنا أن نفكر بمثل هذا المفهوم على الأقل ؟

أجل ، فلا اقل من أن نعترف بهذا الافتراض ، وعندما نفعل ذلك نكون قد خطونا خطوة صغيرة نحو ما نأمل فيه .

ولكن الحال ليست كما هو مفترض أن نفكر فيه ، ورغباتنا في تغييره أعجز من أن تساعدنا على مؤازرة أفعالنا بهذا الصدد ، فالإنسان مصاب بالصمم وهو ليس بأطرش ، و مصاب بالعمى وهو ليس بأعمى ، ومصاب بالعته وهو ليس بمجنون ، فإذناه غير صاغيه إلا لما يريد أن يستمع إليه ، وعيناه لا ترى إلا بما يرغب في رؤيته ، وعقله موجه إلى مسار مرسوم لا يحيد عنه،

بل هو مصاب بغير ذلك من الأمراض والعلل التي يخلقها لنفسه وهو في خضم صراعه مع ذاته أولا ، ومع ما يحيط به ثانيا ، فيرتكب الكثير من الأخطاء العصية على الإصلاح .

وكمثال من الواقع الآني ، أنه عندما نكون مشهودين نبدي انتصارا زائفا مع الحقيقة التي تخص الغير ، ولكن نستشعر أنه اعترافا لا يرضينا فنعيش ازدواجية خفية .

ولذا ، فكما نرى الإنسان وهو يحاول مصارعة العوامل المثبطة لوجوده الفردي ، نراه أيضا يصارع عوامل التقدم لنفسه التي لن ترتقى إلا بالتكاتف مع نوعه على جميع الأصعدة ، ولكنه لا يريد أن يعي إلا وجوده الخاص ، فيمضي قدما يخلق الصعوبات لغيره ويمضي غيره مثله يخلق الصعوبات له ، ربما دون أن يدري أي منهما بالخسارة التي لا تعوض و بالمضرة الكبرى التي يرتكبها تجاه نفسه ، أحيانا لعدم وعيه وأخرى لمصلحة فردية آنية يحصلها تلهيه عن التفكير عن اي شأن خارجها ، وهو في ذلك مثل الذي يصب نفسه في كأس تعوق تقدمه ثم يعيد صبها في كأس أخرى تعيد إليه طبيعته المتنامية .

وهكذا دواليك في مزاولة ابدية ، إلى أن تتناثر أجزاؤه جزءا وراء جزء ، وهو في دوامة مفرغة من

الصب و إعادة الصب ، وعند ذلك ينتهي وقد باتت كل عناصره متناثرة .

هذا التصارع الداخلي الناجم من الرغبة في الغلبة على الغير يمكن معرفة علله بسهولة ، ولكن هل يمكن التغلب عليه بعد معرفتنا بمساره ؟

إننا في الوقت الحاضر أعجز من أن نقوم بذلك وعندئذ يغمض علينا تبين الحقيقة فنضل عن السبيل الذي يؤدي بنا إليها ، وقد نستمرئ ضياعها عنا مادام ذلك يرضي مصالحنا .

إذن نحن لا نقاوم كل ما يثبط قدراتنا نحو التصاعد .

ونتيجة لهذه الازدواجية في بنيتنا الفكرية والتي على أساسها تنمو عوامل الأنانية لدى الأفراد والجماعات نسقط في بئر الدمار .

ومن المحزن حقا، أن هذا ما يصنعه الإنسان نفسه على نفسه.

وللبرهنة على ما قيل ، يمكن لأي باحث متقص إذا أراد ما عليه سواء رسم خط بياني من أقصى دهاليز التاريخ عمقا لمتابعة عمليات التطور ثم الأخذ في متابعة عوامل الانحدار التي تعقب ذلك ، ومن معرفة أسبابها سيرى في ذلك عملية مراوحة صعودا ونزولا لشرائح من البشر المكونة للأمم أو الدول ، ومن ثم رؤية

دور ذلك القطاع البشري ذاته في كلتا الحالتين وهو في ممارساته غير الواعية على نفسه وعلى غيره .

وكذلك الحال على مستوى الفرد ، وإن كان ثمة تباين في السرعة نحو الانحدار عكس الحال في الأمم، تتراوح نسبة اضمحلاله تبعا لممارساته على نفسه المنفردة أو على غيره من الناس ممن يتعامل معه او يحتك به احتكاكا مباشرا .

ولذا تكون لتلك الثنائية المتضادة في طريقة تفكيره ضرية لازمة شديدة الوضوح على مستوى وجوده الفردي فيضمحل سريعا ولكن بأمر من نفسه ، وأيضا على مستوى وجوده النوعي الذي لا يهمه أن يلحظه .

إذن فإن كل ما يعترينا من عوامل مثبطة لقدراتنا نحو الرقي يبدأ من تنامي الإخفاقات الفكرية بوسائل الضغط والتشويه التي يزاولها البشر على أنفسهم .

ولذا نرى أن أيًا من الحضارات في عملية مد وجزر على تعاقب الأزمنة والعصور .

ونرى أيضا ان أيًا من تلك الحضارات التي سادت لم تصمد بصورة أبدية وأنه حالما تزداد توهجا بما تملك من مقومات لا تلبث أن ينبع من ذلك التوهج بذرة فنائها طال الزمن بها او قصر ، كل ذلك نتيجة لازدواجية الفكر داخل نفس الفرد في جانب ، وللصراعات بين المجموعات في جانب اخر .

ولذا إن أردنا تغيير والوقع الذي لا نرضى عنه ، فما علينا سوى الحرص والإعداد لكل ما نحتاج إليه في إظهار الصيغ الفكرية غير القابلة للازدواج وانشقاق النفس على ذاتها وما ينعكس منها على أعمالنا ، أن أردنا حقيقة مقاومة عوامل الإفناء .

إن ما ندعو إليه ليس مستحيلا على المدى الطويل من الممارسة التي تمر بأجيال عديدة متتالية .

ومع ذلك فقد يُرى في تلك الدعوة شطط الأحلام غير القابلة للتحقيق ، ولكن بما أننا نرى في القانون الطبيعي للحياة نفسها ما يقتضي أنه كلما ارتقت الممارسة في طرائق مزاولتنا للحياة سواء ما كان منها عمليات فكرية نظرية بحتة أو عمليات تطبيقية مادية ، ارتقت بوجودنا ، سيكون من الميسور تأجيل عوامل التسارع في الانحدار نحو الإفناء ، وأن العكس صحيح على إطلاقه .

ولو اتبعنا ما ينبغي أن يتبع ، عند ذاك تتخلص البشرية من الكثير من معوقاتها التي تقودها بتسارع أكثر إلى الفناء.

وذلك لن يكون حتى تنتفي أنانية البشر و يعم السلام.

ولكن السؤال الأكثر صعوبة ولبالغ الأهمية من أي من الأسئلة التي مضت.

ما هو الذي ساعد على خلق تلك المعوقات ؟

إنها لم تخلق بذاتها ، نحن من خلقها لقصور في إدراكنا ، ولقصور آخر في ديناميكية أفكارنا نعجز مرة أخرى عن الخلاص منها.

وإذا تدارسنا عناصر هذه المأساة ، نرى كم تملك بذرة الإفناء من عوامل القوة على ارتداد وجودنا ، ليس على مستوى التكوين المادي للجسد فحسب ، بل على مستوى التكوين الفكري أيضا الذي يبدو أن من أهم مهامه القضاء على بذرة الإنماء فينا ، دون أن نشعر او نخطط لذلك .

وبما أن الأفكار من صنعنا ، ووحدها القائد المتصدر لكل ما في الحياة من ممارسات تطبيقية ، إذن ما علينا سوى العمل على تطور تلك الأفكار ضمن العمل المنهجي ،

فأن أي تراجع في تلك الأفكار او انقلابها على نفسها يسدل ستارا كثيفا على ما كان يصاحبها من تطبيقات عملية تدرج نحو التطور والارتقاء ، ولا يبقى أمام الأمم التي اصابها ذلك الانحراف الفكري سوى حث الخطو في التراجع القهقرى ، وربما تتخلله كبوات مميتة أحيانا أو إيقاف لعملية التطور على أقل تقدير ، وعند ذلك تنحدر الحضارة بأولئك الناس إلى

الحضيض ، ليس لأن الانهيار ضربة لازمة تعقب مباشرة نهاية الارتقاء ، كما جاء في تلك الحكمة المقرضة ، وذلك لأن عملية الارتقاء لانهاية لها تقف عندها ، ولكن بجهلنا شئنا أن نعمل على إيقافها.

و بما أن المعادلة مائلة ابدا لصالح عوامل الإفناء ، حتى في الوجود الجمعي ، وانه لا يخفف من المأساة إلا قلة شعورنا بها ، إذن لا أمل لنا إلا بتغيير نهجنا الفكري ، ولا ننسى أن ما ينطبق على الفرد ينطبق على الدول والأمم.

ولكن لعله عندما نعي ما يجب علينا اتخاذه نحو انفسنا ونحو الآخرين حينذاك نجد ما يعيننا على مقاومة عمليات الانحدار السريع نحو الشيخوخة ثم فناء ذاتيتنا المنفردة .

و ربما الكل يعلم أن ذلك لن يتم إلا بعد خلاصنا الداخلي من شوائب الأنانية والأثرة ، وحصولنا على ما يحقق صفاء ذاتنا الوجدانية ، من دون ضغوط ممارسة علينا من أجل هذا .

إذن علينا أن ننأى عن مزاولة السوء لأمور الحياة بتخليص أنفسنا من شرور الأفكار ، التي نحن ذاتنا من يعمل على رعايتها وتنشيطها .

وسوف يكون من نتيجة ذلك الارتقاء بأمورنا العملية ، وانه ومع كل ذلك إذا سلمنا بأن هذه الثنائية ضربة لازمة ، ومحتومة على مستوى وجودنا ، بسبب

المستوى المتدني للتطور الذي نحن عليه ، في وقتنا الحاضر وعلى المدى المنظور من مستقبل أيامنا على الأقل .

وانه ليس في قدراتنا صد أو إيقاف تلك الثنائية ، أو محاولة الإبقاء على ما هو جيد منها ونبذ ما هو رديء، مع الاعتراف بأننا اعجز من أن نجابهها للإبقاء على الديمومة والخلود ، و حتى إنه ليس في وسعنا الحد من اندفاعنا نحوها ، فلا أقل من العمل على كل ما من شأنه الا يحد من عملية تباطئنا نحو عوامل الإفناء ، وأن لا يحد من مقاومة قسرنا على عمليات التسارع نحوها ، بأن نقاومها على مستوى حياتنا الفكرية ، على أمل أن ذلك يمكننا من معرفة كيفية التفاعل معها عمليا .

وبطبيعة الحال فإن ذلك لن يتم ، إلا بمقاومة كل ما من شأنه العمل على إنماء الأمور والأفكار التي تعمينا عما يحيط بنا و تكون سببا في إعاقتنا الفكرية .

لعلنا بذلك نستطيع من خلال تلك المقاومة تلافي التسارع نحو نهاية مدمرة للحضارات التي نبتدعها لأنفسنا ، والتي ربما نستطيع من خلال تلك المقاومة أيضا تلافي ما يهدد الإنسان في أمد بقائه كفرد وكنوع.

وبعيد عن الأماني وعن توازن القوى في الخلقة الطبيعية فإن الوقائع تنبئنا أن الغلبة دائما لمن ينبت في تربة صالحة .

ومــرة أخـرى ، هل نحـن قـادرون حـقـا عـلـى تملك هذه التربة الصالحة وإخضاعها لعمليات الغربلة والغسيل ؟ وهل في وسعنا حمل معول الهـدم للبذرة المفنية باقتدار وضمن العمل المنهجي الذي يقودنا إليـه تغيـر نهـجنا الفكري ؟

إذا كـان ذلك كـذلك ، إذن لابد يومـا أن يصـل الإنسـان إلى كمـالـه لو سار في درب يعرف مـقـدمـا مـعوقـاته قبل أن يحث الخطى فيه.

فـالأفكار لا تزال نـحن من يـسـتنبـطهـا ، ونحن أيضـا من يطبـقـهـا على واقع حـالنا ، فإذا رعيناها بما يمكننا من عـــدم التـنـاقـض نسـتطيع أن نصنع منهـا مـا لم تصنعـه الطبـيـعـة فـينا ، فنضـيف إلى وجـودنـا أبعـادا تطورية جـديدة قـد لا تكون مـعروفـة لنا فـيمـا سبق من أيام .

وبهـذا نحـمي إنجـازنا البـشـري ، وعـسـى أن يكون في الميسور إيقـاف انطلاقـة العودة القـهـقـرى كلمـا قـادتنا قدراتنا إلى أعالي القمم.

بيـد أنه أولا وقـبـل أي شيء ، يتـعـين علينـا مـعـرفـة طبيعة المعوقات الفكريـة ، بوصفنا أشخاصا أسوياء ، إذا أردنا أن نلقي عن كاهلـنا عبء مـا نـنوء به من الأسبـاب التي تحد من قدراتنا الفكرية .

ونعرض فيما يلي ما هو واضح لنا من تلك المعوقات.

المعوقات الفكرية للشخصية السوية :

إن الشخصية السوية لا يعدو كونها أنا وأنت ، أو غيرنا ممن اصطلح على تسميتهم بالأسوياء كتعريف عام ، وكنوع من التفرقة والتمييز بينهم وبين من هم ظاهري الإعاقة ، ممن لا يدركون مما حولهم شيئا .

ولكن إذا تساءلنا عن الحقيقة المحضة المتعلقة بتلك الشخصية السوية المتعارف عليها ، يدفعنا ذلك إلى التساؤل .

هل نحن حقا أسوياء ككتلة بشرية عامة ؟

وهل نحن راضون عما نحن عليه من سوية ؟

وهل ما يدفعنا إلى هذا الرضا في حال من الاقتناع التام به ناتج من أن سويتنا كاملة حقا وصدقا ؟

وإذا كنا غير راضين وغير مقتنعين ، هل لأن ذلك ناجم عن معرفتنا بأن سويتنا جزئية أو تجاوزيه ؟

وبما أننا بوصفنا عربا جزء من ذلك التكوين البشري العارم ، فهل ما يقع علينا من عوامل الإعاقة كتجمع مختص بعروبته أكثر مما هو واقع على مجتمعات لها خصوصيتها هي الأخرى ؟

وما هي حظوظ أو درجات الإعاقة في كل تجمع بشري ؟

عندما نحصل على إجابات لتلك التساؤلات سوف نرى.

أولا : أن لا أحد يكون على دارية تامة بأحوال البشر ويقطع بأن هذه السوية تعتبر كاملة .

ففي رايي كما أظنه في راي الكثيرين ، أن ما نحن عليه من نقص في السوية كبشر عموما لا يحتاج إلى برهان أو جدل على الرغم مما نبدو عليه من عقلانية ظاهرة .

ثانيا : عدم اكتمال السوية ، هي صفة لا تختص بقطاع بعينه بل هي تشمل كافة التجمعات البشرية وتتناسب عكسيا مع الشأو الذي يقطعه التجمع في سلم الحضارة .

ففي الحقيقة إن في كل تجمع بشري ثمة الكثير من العوامل المعوقة التي يحملها ناسه في تركيبتهم الفكرية والتي تقلل من قدراتهم على التفاعل مع ذواتهم تفاعلا سليما بالدرجة الأولى ، ومع مجتمعاتهم بالدرجة الثانية ، ومع الناس كبشر عموما بالدرجة الثالثة .

وعدم اكتمال تلك السوية هي التي تحول دون نمو فكرنا نموا مستقيما في خط تصاعدي بنسبة خالصة لا يشوبه انحناء أو ارتداد ، و أن ما يحدث أن هذه النسبة تنقص دائما عن حد الاكتمال حتى بين المرء ونفسه وتختلف في حالته بحسب المواقف والظروف التي يتعرض لها المرء ، وأيضا تكون متفاوتة في

درجات نقصها في أي تجمع بشري كالدولة أو الأمة في المواقف المتباينة.

وبما أنه من دون أدنى شك أننا جميعا راغبون بأن نكون في أعلى درجات السوية ، لكي تكتمل بنا الحياة .

إذن ، لماذا لا ندرك النقص فينا إلا إدراكا ضبابيا ؟

أو أننا ندركه بوضوح ولكن لا نستطيع تلافيه لرغبة أشد في مدرك آخر ،كالنصر والسيادة والامتلاك وغير ذلك مما لا حصر له ، مما يدفع بنا إلى التخلي عن تلك السوية الحقة من أجله ، فنعلن غير ما نبطن ونتصرف ضد طبيعتنا لكي ننال رغباتنا حتى لو أدى الأمر إلى أن نُعيق أنفسنا بإرادتنا المغتصبة من ذات رغباتنا .

وبما إن ما يسيِّر حياة الإنسان هي أفكاره فإما أن تقوده إلى حياة سوية ، أو تعمل على ارتداده بما لا يجعل له قائمة تقوم .

وبما أنه على الرغم من إدراكنا لذلك الأمر أحيانا إلا إننا مجبرون على الرضا بتغيير أفكارنا الظاهرة كما لو كان باقتناع منا ، وذلك لعجزنا عن تبيان الخلل فينا ، أو لوجود قوة ضاغطة تسيرنا وحينئذ تكون الأمور العائقة اشد وضوحا لنا عندما تأتي على الرغم منا بفعل تلك القوة التسلطية التي تفوقنا مقدرة على تصريف أمورنا .

ولكن سواء كانت تلك الإعاقة بسبب من أنفسنا ، أو بسبب من غيرنا ، كيف تحدث فينا تلك الطواعية التي نبديها تجاهها والتي تقودنا إلى الخنوع ، و التي من جرائها نفقد الإرادة لمقاومتها حتى لو رغبنا في ذلك .

أي في حالة رغبتنا مقاومة أنفسنا والتضحية بما يغرينا في سبيل الحق والمبدأ ، أو مقاومة من يجبرنا على الاستسلام لرغباته.

إذن يتعين علينا معرفة السبب الذي يمنعنا من تحقيق هذا المطلب الغالي .
ولكن ذلك لن يكون إلا عند معرفتنا الإجابة على تلك التساؤلات ؟

فعلى الرغم من أننا متأكدون من أن لا أحد بإمكانه إعطاء الجواب الشافي على مثل تلك الأسئلة ، ولكن لعل البحث في هذه الأسباب والخوض في غمارها بإصرار وعزم على الرغم من الصعوبات التي نتوقع مجابهتها والتي من جرائها سوف نجبر نفسنا على المراوغة للإفلات من بعض المحظور ، فلعل وعسى ذلك الخوض يدلنا ولو على جزء يسير من السبل المؤدية إلى معرفة الجواب .

أجل ، نحن لا ندعي معرفة الرد على كل تلك التساؤلات ردا واضحا لا يعتريه اللبس ولا يكتنفه الغموض ، ولكن عند تقاطع نقاط المشكلات الفكرية

المثارة بين الأفراد أو التجمعات الإنسانية ، يبرز لنا بوضوح ذلك التناقض في الشخصية السوية ، بين ما هي كائنة عليه كطبيعة في خلقتها ، وبين ما يراد لها أن تكونه قسرا ظاهرا صريحا ممارسا عليها من الغير، إما بالإخضاع المادي لها كقوة مهددة معلنة وصريحة يُخضعها على الرغم منها لما يراد منها أن تكونه ، وذلك باستعمال الردع الجبري عند الضرورة ، أي لدى ظهور أية بادرة منها للمقاومة ، خاصة في المجتمعات الأقل نموا حضاريا ، تلك التي لا يعترف بها بأدنى درجة من درجات حقوق الإنسان ، و تهبط بها الحريات إلى أدنى مستوى من حرية الفرد حتى في مزاولته لحياته الحميمة .

أو بفعل قوة تسلطية ولكنها خفية وغير ظاهرة ولا صريحة تمارس على عقل تلك الذات لكي توجهه نحو مسار فكري معين ، يجعلها تستجيب لما يراد منها دون وعيها في بعض الأحيان ، أو بعلمها ورضاها لما توعد بما سوف تناله من جزاء في أحيان أخرى.

وسواء أكانت تلك الشخصية راضية بوعي أم من دونه ، أم مكرهة رغما عنها ، فإن الإعاقة تلبسها لا محالة في كل الحالات.

وشخصية كهذه ،لابد أن يعتري سويتها نقص بدرجة ما ، ولابد أيضا أن تكون فاقدة لإرادتها ولو

فقدا جزئيا يكبر أو يصغر ذلك الجزء ، بحسب ما تتعرض له من نشاط ممارس عليها مضادا وكابتا لإرادتها ، ولكنها مجبرة على تقبله ، وغالبا بالرضاء الذي يُراد منها أن تبديه حتى لو كانت مكرهة.

وليس هذا فقط ، فقد تأتي الأمور بنواتج أكبر من الضرر العام الذي يهمل شانه كما هي العادة ، فقد يأتي إلى ذاتية الفرد نفسه من جراء الكبت والقمع المتواصلين مما قد يؤثر في إرادة الشخصية وسويتها معا تأثيرا كاملا، مما يؤدي بها في النهاية إلى فقد جزء غير يسير لمنحى من مناحي التفكير السليم ، حتى من داخل ذاتها وأمام نفسها الداخلية ، مسببا لها الإعاقة الحقيقية ، دون أن تشعر ، وأن شعرت فلن يجديها نفعا ما تبديه من مقاومة ظاهرة أحيانا ، أو باطنة في غالب الأحايين على ذلك القسر التعسفي لإرادتها ، بسبب من تلك الممارسات الضاغطة بقوة أقوى منها . أو بسبب من رغبتها الواعية في مدرك آخر، يشكل لها إغراء يخضعها على الرغم من أنه يتعارض مع التفكير السليم ، كأن يكون مثلا إرضاء لمجموعة من الناس عليها أن تبديه لهم ، كي لا تفقد رضاءهم عنها ، تفعل ذلك على حساب إرضاء الحقيقة التي تؤمن بها في قرارة نفسها وأن كان ما تطلبه لنفسها لا يتعارض مع طبيعة الحياة ، أو لا يفقد

المتعاملين معها شيئا من مكتسباتهم الحياتية ، وبذلك تحدث لها الإعاقة بإرادتها في مثل هذه الحالة .

أو قد تحصل لها الإعاقة بأسباب أخرى منوعة ، مدفوعة إليها بقوة أكبر من الرضا أو عدمه ، كالإخافة بتسبب الأذى لها أو التهديد بعقاب لا قبل لتلك الشخصية بدفعه ، حتى لو احتشد البشر أجمعين للدفاع عنها .

أو بأسباب غير تلك يطول شرحها ، وهي على اية حال لا تخفى على الجميع .

وحينئذ يتم الاستيلاء على المقدرات القوية لفكر تلك الشخصية استيلاء قسريا ، من دون استعمال السلاح ، فتخضع من جرائه على الرغم منها إلى دوافع فكرية ربما لا تراها منطقية ، أو حتى لا ترغب بها ، لو كانت في حالتها الطبيعية المجردة .

بيد أنها في الوقت الآني الذي تكون موجودة فيه ، وهي في ذلك الظرف القاهر لإرادتها مضطرة إلى الخضوع لعدم قدرتها على مجابهة تلك القوة القسرية ، سواء أكانت مادية كقوة تسلطية ، أم فكرية تكون من جرائها متأثرة بما يلقى في وعيها اضطرارا على الرغم من إدراكها بعدم ملاءمته لها أو لتناقضه مع ما تحمله وتدين له من أفكار.

وعندئذ يخلق لها ذلك الشرخ العميق في نفسها ، ومن ثم تحدث لها تلك الازدواجية الذهنية فتعيش متنابذة الفكر قلقة الوجدان بين ما تريد أن تفكر فيه حقيقة وتراه صائبا ، ومن ثم تمارسه تطبيقا عمليا إن كان قابلا للممارسة ، أو تُنظّر له إن لم يحتمل سوى ذلك ، وبين ما يراد لها من فكر عليها أن تعيش به ، ولزاما عليها أن تبدي رضاءها عنه أمام الآخرين ، عند ذلك تنقسم ذاتها انقساما مزدوجا ناجما عن الكذب المتواصل وإحساسها بالقسر لتبدو كما يراد لها أن تكونه ، وما يتعين عليها إبداؤه للترضية العامة ، وبالتالي فهي مضطرة اضطرارا تعسفيا إلى تطبيق أفكار لا تؤمن بها ومخالفة لقناعتها الخاصة ، وبالتالي مزاولة ما لا تحبه من أعمال أو أبدأ فكر لا تؤمن به ، وحينئذ تبدو الشخصية على ما تبدو عليه من عدم تواؤم مستمر مع ذاتها حتى وأن لم يبد ما هي عليه ظاهرا للعيان .

وفي مثل هذه الحالة ، يحدث لها أحد امرين ، أما أن تتقبل ذلك الفكر المفروض عليها اعتناقه ، ولكن بصورة ظاهريه من جراء الخشية والرهبة ، فتحدث لها فجوة بين ما تريد أن تفكر فيه وفق قناعتها العقلية ، وبين ما يراد منها من فكر معاكس لقناعتها .

او يحدث لها القبول عاطفيا ، بما هو مفروض عليها من جراء وقوعها تحت تأثير امور فرضت عليها ، أو ربما فتحت عينيها لتجدها تخاطب وجدانها ، وتوجب عليها اعتناق ما يراد لها اعتناقه ، على الرغم مما يجده عقلها من تناقض بعد تفتح وعيه وبعد نضجه واكتسابه قدرة على إنتاج الأفكار والتمييز بينها، ومعرفة ما هو صائب منها ، وما هو خاطئ في معطياته، وحينئذ يعتريها القلق وتفقد الطمأنينة.

وحينما تبدي الشخصية تمردا ظاهرا معلنة مقاومتها، تجابه ما تجابه من أخطار تهدد كيانها ووجودها معا ، ولكن يبدو عقلها محتفظا في سويته غير خاضع لأي نمط من التفكير غير خاص به ، وبالتالي فإن تلك الشخصية لا تقبل المساومة ولا المراوغة بين المواقف فلا تعلن إلا ما تبطن ، وهذا نادرا ما يحدث ، وإن حدث هذا الصعب فسرعان ما يُزال محدثه كما تزال عثرة من الطريق ، وهذا ما هو حادث في واقع حياتنا وممارس على رؤوس الأشهاد .

ولكن على أي الحالات فإن كل الشخصيات سوف تعيش القلق وعدم الطمأنينة لإحساسها بذلك التناقض ، أو من جراء الخوف الذي تجلبه المناهضة ، وحينئذ يلبسها الاضطراب وينشب صراع داخلي فيما بين عقلها ووجدانها، محدثا لها ذلك الشرخ ، الذي

يؤول بها إلى الإعاقة ، التي قد لا تبدو واضحة بيّنة ولكنها ستحد من نمو فكرها نموا تصاعديا سليما .

ومن بداهة القول أن هذا لا يقتصر على مكان معين، فالقول يعم الشخصية الإنسانية بصفة عامة وأينما تكون، ولعل من الصفات الحسنة لهذه العمومية انها تسهل الموقف وتيسر القول فيه ، ولكن لابد لنا من أن نشير إلى أن هذه الإعاقة توجد بنسبة متفاوتة ، ليس بين فرد وأخر، أو بين مجتمع واخر فحسب ، وإنما يشمل هذا التفاوت في الدرجة بين أي منطقة وأخرى في العالم بما يقاس بالدول أو الأمم .

وقد تنخفض النسبة العددية بين الأفراد المعاقين في المجتمعات السائرة نحو الرقي ، وقد يتضاءل وضوح علامات تلك الإعاقة أحيانا ، ولكنها لا تعدم تماما ، ويبقى مالها من تأثير قوى فى المجتمعات .

ومن المؤكد أن الإعاقة توجد بصورة جلية وواضحة ويمكن ملاحظتها فيمن يتولى إدارة شأن تلك الشعوب المتحضرة ، فقادتها وساستها يتضح فيهم التناقض بين ما يبدونه ويعلنونه من مبادئ إنسانية تسعى إلى العدالة البشرية العامة ، وبين ما يطبق عمليا في السعي الدؤوب لإحداث الحروب ومقاومة السلام من أجل سرقة اللقمة من أفواه الشعوب الجائعة .

أجل ، يبدو ذلك واضحا في أولئك الخاصة المسيطرة

من قـادة الشعـوب والأمم التي تدعى الـتحـضـر ، فـعلى الرغم مما يبـذل من عـناء دفـاع المفكرين عـمـا هو حق للكثرة الغالبـة من البشر ، إلا أنه جهـد ضائع في خضم الأفكار الضـالة التي تملأ نـفوسـهم المعـاقـة فـيقـومـون بمناهضة كل ما من شأنه إنصاف غيرهم منهم ، إذ إنهم لا يفعلون مادام لهم القدرة على التضليل .

إنهم في مـزاولتهم لشئون الحياة البشـرية العامـة ما زالوا في طور إنسـانـيتـهم الأولى ، فـهم لم يسـتطـيعـوا الـتـخلص تماما مـن موروثهم الجيني المنحـدر لهم من أصلـهم الـقـردي »× على الـرغم ممـا يبـدو عليـهـم من مظاهر حـضـارية ، وربما يحـتـاج الأمـر منهم إلى مـدى زمني أطول لـترتقي تـلك المجـتـمـعـات الراقـيـة إلى رقي أكـثـر . فـيتـخلص من يتـولى إدارة شئـونهـا مما يُعـيق أفكارهـم ، وعندئذ لا ينـظرون إلى الشعـوب الأخـرى إلا النظرة الإنسانيـة البحتة ، وكـما يجب أن تكون بصفـتها المطـلقـة ، لكي يتم للقـائمين عـلى شـئـون تـلك الدول المتحضرة كامل السوية الفكرية ، وإلا فإنهم حتما سوف يكبـون على وجـوههم وهم مـولون على أعـقـابهم ، كـمـا حـدث للحـضـارات التي سـادت ثم بادت بعـوامل الأثرة

❖ فى رواية دائرية الزمن ذكرت المؤلفة ان الإنسان المحارب هو ذاك الذى ما يزال يحتفظ فى تركيبته الخلوية بعض من جينات القرد الذى انحدر الإنسان فى سلالته ، اما من كانت خلاياه نظفت منها هو ذلك الانسان الكامل.

والأنانية المقنية لكل تقدم ورقيّ ، وسوف تستمر الحياة على ما نعهده فيها من حالة المراوحة ، لا تشذ عن حالة الماء الراكد الذي لا تكاد ترتفع نقطة فيه حتى تعود إلى السكون ، أو كحالة المرابي الجشع الذي يعطيك ثم يسترد ما أعطاه مع الفوائد لكي يعطيها لغيرك بنفس الطريقة .

ولذا فإنه مما يبدو ، أنه في أي مجتمع ، ومهما بلغ من الرقي كما يقاس في منظورنا الآن ، فقطع شأوا كبيرا في مضمار الحضارة إلا أنه يوجد به من يكون غير كامل السويةِ ، بنسبة لا بأس بها بين افراده كبرت هذه النسبة أم قلت ، ولكنها متمثلة في وضوح فيمن يتولى إدارة شأنها ، وهي موجودة ومستمرة معه في الوقت الراهن وعلى المدى المنظور من المستقبل القريب على الأقل.

ودليل ذلك أن تلك الإدارات التي تتولى شئون تلك الشعوب الراقية ، هي نفسها من يتولى طمس معاقل الفكر لدى الشعوب الأخرى ، الأقل منها قوة ورقيا سعيا وراء استمرارية إخضاع مقدرات وأقوات تلك الشعوب إلى خدمة شعبها المفضل ، فينجم عن ذلك أن تحدث لنفسها الإعاقة الخفية وتبتعد عن أساليب التفكير السليم لانشقاق نفسها انشقاقا مستترا ربما لا تلحظه بوضوح ، بين ما تراه من حق لغيرها من

الشعوب وبين ما تريده لشعبها من الرفاهية ، حتى لو كان ذلك اغتصابا .

أو ربما أحيانا تكون على وعي بما تفعل ، وأن ذلك الوعي أتى لها من زخم الحضارة التي ترتع فيها ، وعندئذ فإن إدراكها لخطا ما تقوم به لابد أن يكون واضحا لها كل الوضوح ، فحينئذ تؤدي بها تلك الازدواجية الناتجة بين ما تشعر به من ذنب وبين ما تقوم به من عمل مناهض لحقوق الإنسان ما يؤدي بها إلى انشقاق النفس بين عذاب الضمير الخفي ورغبتها في إرضاء شعبها بما تحققه له من راحة وطموح.

فإذا كانت هذه هي حال الأمم الراقية فإننا نتوصل من هذا إلى أن البشر على إطلاقهم ما زالوا يرزحون تحت نير ما سلف من أفكار بدائية بقيت في رواسبهم ، وأن بدوا على ما يبدون عليه من تحضر صنعوه فيما يحيط بهم من تقدم تكنولوجي عجز عن أن يرتقي بخلقتهم إلى مستوى أعلى في بنية وجودهم البيولوجي .

وأن ما يعوزهم هو ذلك الرقي في الخلقة الطبيعة ، وهذا بعيد عنهم في الوقت الحاضر .

ولذا فهم لا يتورعون عن التناحر في سبيل الرغبة في الاستيلاء على اكبر كم من مقومات الأخر حتى لو زاد عن حاجتهم ، وأنه يعوزهم الجهد للتخلص من

أطماعهم ، سواء ما كان على مستوى العامة من الناس المتمثل في الدول أو الأمم أو الفرد الواحد المنفرد عندما ينازع غيره على ما يمتلكه ، يحدث هذا نتيجة للجهل بمسئولية الإنسان تجاه غيره ، ولضحالة وعيه بتلك الأفكار الضارة ، التي تسببت له بتلك الإعاقة ، مما أدى إلى عدم الارتقاء بمداركه ، وكأن لسان حاله يقول المثل (أنا ومن بعدي الطوفان) .

أما في المجتمعات الأقل رقيا ، فحدّث ولا حرج ، حيث تظهر تلك الإعاقة بزخم أكبر وعلى كل المستويات من أعلى قادتها الاجتماعيين إلى ساستها الحاكمين ، إلى من يتزعم الإصلاح الديني فيها ، إلى أن تنحدر حيث توجد الطبقات المتردية اجتماعيا بدافع من الشخصية نفسها .

هذه الإعاقة حادثة لكل طبقات المجتمع ولكن ليست بطريقة تلك الدول المتحضرة عندما يقوم قادتها مدفوعين إليها بمحاولة إصلاح حال شعوبهم ورفاهية مجتمعاتهم ضد المجتمعات الأخرى كما تفعل وهي تسلب الشعوب الأخرى أقواتهم لتقدمها على طبق من ذهب إلى شعوبها ، ولكن تحدث من نواتج أو تأثيرات تراثية يعمل على إبقائها أو إحيائها لكي يصعب على تلك الشعوب في الدول النامية التخلص منها ، أو بفعل ظروف مُعاقة بذاتها فوجدت تلك الطبقات

نفسها تخوض في غمارها ، ربما رغما عنها ، وخاصة في تلك المجتمعات التي اقل ما يقال عنها إنها محافظة وقد دفعت دفعا إلى أن تتبع السلف تبعية حرفية تقف بها عند حافة الجمود .

فمُسخت طرائق التفكير لديها حتى في مزاولتها لحياتها اليومية بما لا يجعل لها قائمة تقوم إلى مدى طويل من الزمن وخصوصا عندما يتربى أجيال من البشر على يديها .وكمثال من واقع فعلي من الكثير المماثل له ، نروي شذرة من أحد طرائق التفكير لبعض العامة من الناس في عالمنا الثالث بعيدا عن الأسلاك الشائكة التي نخشى تخطيها على الرغم مما فيها من أمثلة تشيب لها رؤوس الشباب أما بقية الشذرات فسنتكلم عنها لاحقا.

كنت مرة في إحدى الجمعيات التعاونية ، وكنت في سبيلي لشراء منظف للأسنان ، وإذا بامرأة تسدل ستارا كثيفا على وجهها لا يظهر منه سوى عينيها تصادف وجودها بقربي ، فقالت ناصحة لي من دون مقدمات تستدعيها طريقة التعرف على الغرباء.

- دعي عنك هذه المنظفات ، وسأدلك على العديد من الفوائد التي في الطب الشعبي ، اغسلي أسنانك بالملح والفحم فإنه أكثر منظفا ، فأجدادنا من السلف كانوا يستعملونه.

وهناك ما هو أكثر عملية وفائدة منه ، إنه السواك خاصة وهو لا يتطلب منك وجود الماء ففي استطاعتك استعماله أين ما تكونين .

واستثنت بقولها إنها فوجئت بأن ابنها الشاب يستعمل هذه المعاجين المنظفة وأبدت تخوفها من الأضرار الشرعية على ما قد تحتويه هذه المعاجين من مواد قد تكون محرمة.

إذن فالأمر لا يقتصر في الإعاقة على طرائقنا في التفكير المجرد ، بل قد يجر ذلك إلى الممارسة الفعلية المؤثرة في الصحة والذوق العام كاستعمال المسواك أينما يكون المرء ، حتى لو كان بالقرب من الناس.

وإذا بحثنا بدقة عن مسببات هذه الإعاقة ، نراها في أمور قد لا تبدو واضحة الصلة فيما تسببه لنا من قصور فكري ربما لا يتبينها إلا من أراد إرجاع الأسباب إلى مسبباتها في بحث ميداني يصحبه استقراء الأفكار وفك طلاسم ومعميات العادات وتتبع منابعها ، وبعضا منها يتمثل فيما يلي .

ثالـوث الأثافـــي :

يقول المثل القديم :

(تعددت الأسباب والموت واحد - أو الإعاقة واحدة).

ومن هذه الأسباب ثلاثة رئيسة تنبع منها كل عوامل الإعاقة ، او هي لها النصيب الأعظم في إحداثها ، ولكن ثمة أمور أخرى تدخل في نسيج بنيتها ، وتساعد على تحريك ديناميكية تلك العوامل فتعطي تلك الأسباب الثلاثة تأثيرا أكثر في أحداث الإعاقة .

ولكن هذه الأمور الأخرى لا يمكن الإفصاح عنها كلها ، والتصدي لها بالعلانية المعتادة ، لأن ذلك يحول دونه خرط القتاد كما يقال ، إذن حتى من قبل البدء فثمة إعاقة تحاصرنا .

ولذا أرجو أن يغفر لي فيما سوف أستعمله من تورية ، ربما صاحبها بعض من الغموض ، فمن الواضح أن لدي أيضا ما يعوقني عن الإفصاح عن أفكاري بصورة مطلقة .

ومع كل هذا وعلى قدر ضآلة ما يقال في المجتمعات المكبلة بالممنوع و المحظور التي قد لا تحيطها مثل هذه الصفحات المختصرة ، ولكن من منطلق أن شيئا صغيرا يضم إلى أشياء اصغر ، هو ما تتكون منه كبار الأشياء ، هذا ما دفعني إلى إثارة القول حول معوقات

الانطلاقة الفكرية للشخصية السوية بصورة عامة ، وفي أي مكان على كرتنا الأرضية ، وبالطبع فإن من ينال القاسم المشترك الذي يحظى بالنصيب الأوفر من هذه الإعاقة ، هي الشخصية العربية ، فهي الأكثر انضواء تحت نير ذلك اللواء .

وقد يكون في قولنا هذا بعض من الشطط ، فنعيد صياغته إلى القول ، أننا بصفتنا عربا تسورنا عوامل تعوقنا مثلنا مثل أي مجتمع آخر ، في أي مكان في العالم النامي كما يحاول مبتدع هذا التصنيف أن يحسّن القول فيه.

والآن يجدر بنا التعرف على أسباب هذه الإعاقة التي لا ينبغي الحديث عن بعضها إلا بتورية كما نوهت ، ولكن بسبب مما نراه من أهمية لآثارها السيئة علينا ، يدفعنا دفعا إلى الإشارة إليها على الرغم من كل المحاذير .

غير أنه من بداهة القول ، أنه ليس من الميسور الإلمام بكل تلك الأسباب ، لما لها من تشعيب ، يصعب تتبعه في الجهد المنفرد ، مهما كان عاليا ، إذ ليس في مقدورنا إعطاء صفات شمولية تحيط بكل دقائق الأمور ، إذ لكل بقعة في العالم منطقها الخاص الذي تتبعه وهي تضع أمامها ما تصنعه من عراقيل تسبب بها الإعاقة لنفسها دون أن تدري أو قد تكون تدرى ،

ولكنها تفعل ذلك لأسباب تخدم مصالحها أو تكون مدفوعة إليها دفعا قسريا لخدمة مصالح غيرها على الرغم منها .

إضافة إلى أننا قد نغفل عوامل نكون على معرفة بها ، ولكننا نسقطها عامدين لشدة حساسيتها بالنسبة للمجتمع العربي في الواقع الراهن الذي نعيشه ، وهذا السبب الأخير ، برهان آخر على أحد مظاهر الإعاقة الفكرية في مجتمع كمجتمعنا يمنعنا عن الإفصاح عن كل ما نريد بيانه .

ولكن بحسب ما في الميسور ، وهو ميسور جزئي كما ذكرت ، نرى أن تلك المعوقات في مجتمعنا العربي تندرج تحت ثلاثة عوامل بارزة تشل العقول الواقعة تحت تأثيرها، وهي تكاد تشمل كل المجتمعات المشابهة لنا في أي مكان ، وأن من يسبب تلك الإعاقة ويرسخها ما هي إلا رؤوس لمجتمعات أخرى استعملت تحضرها لاستنباط طرق وأساليب عديدة وعويصة لإعاقة تلك الشعوب النامية لكي تبقى أدنى منها تحضرا ، والتي شاء سوء طالعها أن تكون واقعة تحت نير سطوتها بأشكال عديدة من القيود التي استُحدثت لها ، وقد رُسمت لذلك مخططات جهنمية يعجز الشيطان نفسه عن فك طلاسمها إن كان ثمة من يدعى بهذا الاسم ، كل هذا لكي تركع تلك الشعوب فتنقاد بطريقة غير

مباشرة لرؤوس منها أيضا ، تخضع تلك الجماهير لمشيئتها وتوقعها تحت تأثيرها دافعة بها لكي تقع أسيرة نير ثالوث متشابك الأضلاع يسحقها سحقا ، ولقد استخدم لترسيخ ذلك الأسر عناصر ثلاثة نذكرها بحسب أهميتها ، وهي استلاب حرية التعبير ، فكبته يُعد الأقوى والأعظم فعالية في تجميد العقل وتحويل مساراته الفكرية ، لكي يقف عند حد معين من النضج لا يتجاوزه إلى ما هو أبعد منه أبدا ، ومن بعد ذلك تسلط عليه الأوهام ، ليتم التركيز على ذلك الاستلاب الذهني.

وعندئذ تقوم الخرافة بإسناد تلك الأوهام ودعمها لإثراء فاعليتها.

و بعد ذاك لن يحتاج الأمر إلى بذل مجهود كبير لتجهيل العقل إذ سوف يتم ذلك تلقائيا وبكل سهولة ، وحينئذ يكون لأصحاب المصالح ما يريدون من خدمة لمصالحهم المبتغاة من وراء هذا كله.

وسوف نرى أن تلك العناصر الثلاثة متلازمة لا يمكن فصلها لشدة ترابطها واعتماد بعضها على البعض الآخر ، وهي بالتفصيل :

١ - تكبيل الحرية الفكرية المعبرة

٢ - الوهم والخرافة

٣- تجهيل الناس

و غني عن البيان أن تحقيق المصالح للقادرين من أربابها على إعطاء الفعالية لهذه العناصر الثلاثة هي القاعدة العريضة التي ترتكز عليها أوتاد هذا الثالوث الجهنمي .

ولقد راعينا تسمية تسلسل ذلك الثالوث بحسب اهمية عناصره في أحداث الإعاقة ، ولكن عند تفصيل القول ، سوف نبدأ (بالوهم) لأسبقيته الزمنية في الوجود ، عندما كان الفكر الإنساني ما يزال في مهده ، وقبل أن تظهر الحاجة إلى عمليات تنظيمية وإعطائه أيديولوجية مرسومة .

فقد استخدم الوهم على مدى ما مضى من أزمنة سحيقة وغابرة ، لعصور طويلة بالتعاون مع الخرافة لأن ما من شيء يستعاض عنهما في أحداث الأفكار المستنبطة من المخيلة ، في ذلك الوقت ، فالعقل في بدايته الأولى ولا يعتب عليه لمزاولته الأوهام إذ لابد للمخيلة من أن تعمل ، ولكن المصيبة في زمننا النير هذا ، فقد أستمر استعمالنا لهما ، ليس لأنه لم يكن لدينا البديل ، وإنما نفعل ذلك عامدين متعمدين لتجهيل العقل وتسطيحه .

ومن أجل ازدهار هذين المعطيين فقد كبلت الحرية التعبيرية لخدمة ذلك الغرض ، فكان من نتاج ذلك هو

تحقيق المصلحة متى وأينما كانت لأولئك الذين لهم القدرة على نيلها على الرغم ممن يناوئهم ، ومازال ذانك المعطيان الممسوخان يحققان لهم ما يريدون حتى وقتنا الحاضر .

لقد سُخر هذا الثالوث لخدمة المصالح الفردية أو الجماعية المشتركة وحتى لدول ، فكان ذلك في تنظيم غير معلن ومغلق لا يدخله سوى المستفيدين من تجهيل الناس والمنضوين تحت لوائهم .

هذه السلسلة المغلقة المحكمة العقد من ذلك الثالوث الجهنمي الذي يستعصي علينا فك تلاحمه ، كان الهدف الأساسي منه هو تحقيق ما يريده أرباب المصالح ، مستعينين به على نيل مبتغاهم بشتى أدوات الإرهاب الفكري القامعة ، ليس بين الناس والناس فحسب ، بل حتى بين المرء ونفسه ، مستغلين أفكارا شاذة وغير منطقية وطرحها عليه بوسائل وطرق تجعلها تتغلغل داخل النفس رغما عنها ، فيكون من العسير على المرء العادي التخلص منها بسهولة ، وذلك إما بفرضها عليه كأحكام يخضع لها وتدعو لفكر مرهب مخيف ، ومن ثم تقبله بالطاعة والرضا لصيغ من الأوامر والنواهي فيما ينبغي عليه التفكير فيه والتصرف على هداه دون غيره ، أو بالقسر إذا اقتضى

الأمر ذلك ، والويل كل الويل لكل من يحاول المناهضة أو التفكير بما يخالف ما أريد له .

وقد اتخذت للردع وسائل فكريه على الرغم من كونها على غرار من الصيغ الخرافية إلا أنها مرعبة تمنع أي خلجة في النفس عن النشوز لغير ما دُعيت إليه ، فهي تحرم عليها منذ البدء التفكير فيما عدا ما رُسم من طرائق فكرية أُعدت لها . فقد دُق في وجدانها أوتاد وأسافين لمعتقدات من الأوهام عصية على الاقتلاع ، وبطريقة تجعلها ترسخ فلا تنزع إلا بنزع الأفئدة ، فلا تلبث تلك النفس حتى تلبسها برضاها التام لشدة ما اقتنعت بها .

فكان من جراء ذلك أنه لو حدث لأي امرئ أن يفكر بحرية وبمعزل عما هو مفروض عليه ، وهو غالبا ما يحدث ، فان هذا الأمر يستدعي خلق موقف متأزم بينه وذاته ، أي بين ما تنازعه إليه أفكاره الحرة التي يضيئها عقله وبين ما يتعين عليه من مراعاة الطاعة العمياء لما دُعي إليه وفرض عليه فرضا وجدانيا يهدد طمأنينته أن لم يرضخ له .

و من جراء تلك التدابير تم إخضاع العقل الجمعي لمسار مرسوم لا يحيد عنه .

كل ذلك يحدث خوفا وخشية من تبين معطيات لأفكار أخرى جديدة قد تطرأ على ذلك العقل وتكون

مخالفة بمعقوليتها المنطقية لتلك المعطيات الخرافية المنتجة لتلك الأوهام .

أجل ، إنها تلك السطوة الجبارة لتلك الأفكار التي تحاول أن تسلب المرء الحرية سلبا تاما حتى بينه وبين نفسه ، فارضة عليه طرقا معينة لما يجب أن يناقش عقله به ، وإن فعل ما يغاير ذلك فلن ينجو من استشعار العذاب بسبب ذلك السيف الفكري المعلق على هامته في الرواح والغدو ، يدعوه ، بل يوجب عليه الاقتناع بكل ما يُراد منه الاقتناع به ، وإن خالف ذلك من المسائل فيما يراه يخالف قناعته الخاصة او أن يرى أنه ما لا يتفق مع منطق الأمور كما يشير إليه عقله الحر ، فالويل له مما توعد به لخروجه بأفكاره الخاصة عن معطيات تلك الأوهام ، وما أدراك ما هذا الويل الذي سوف ينصب على هامته سيفا يسلط عليه عذابا يعاقبه وجدانيا ولا قبل له باحتماله.

فسوف تلاحقه جيوش لا يراها ترهبه وتقض مضجعه ليلا وتنغص عليه سبل حياته نهارا ، والتي مع كل ما يمكن ان يُقال عن الوسائل والسبل التي تنتهجها إلا أنها عصية على الحصر ، وقد تحتاج إلى مجلدات لسطرها ، وهذا محال ونحن في مثل هذه العجالة التي يدفعنا إليها الحذر.

ومع ذلك فلن تمنعنا هذه العجالة من القاء نظرة

سريعة على تكوينات نقاط أضلاع ذلك المثلث الهرمي المرتكزة على قاعدة أساسية يكونها كل ما يتعلق بتحقيق المصالح المتشابكة لأفراد أو جماعات أو قد تكون لدول وهو غالبا ما يحدث .

إذن فإن تنفيذ تلك المصالح يرتكز بصورة أساسية على خدمة ذينك العاملين الأول والثاني ، ولذا فكل الجهود تكرس لترسيخ فاعليتهما حينا بالتدخل لصالحهما عند اللزوم حتى لو أدى الأمر إلى استعمال القوة ، فلا يني أصحاب المصالح يروجون الخرافة وينشرون الأوهام بإيقاظ المفاهيم التي عفا عليها الزمن من سباتها لكي يستتب الأمر للعامل الثالث بمساعدة العامل الأول كأداة قامعة.

والآن فلنعد إلى إلقاء نظرة مفصلة نوعا على تكوينات أضلاع ذلك المثلث ، الهرمي وقاعدته العريضة، بادئين بالوهم .

الوهـــــم :

من الممكن أن يُعـرّف الوهم عـلى أنه كل فكرة مـؤدية إلى تـغليف الذهن ، بمـعطيـات بعـيـدة عن مـنطقـيـة الواقع وما نعقله من الأمور .

إذن فـهـو يشـمل كل الـغـيـبـيـات،التي لا تخـضع إلى المنطـق العلمـي المبـرهن عـمليـا أو نظريـا ، اي كل مـا لا يستطيع العـقل تبريره بنظرية استدلالية مـستنبطة أو بعـمليـة علميـة مـحقـقـه ، وقد أحـسن الدكتـور عبد الله زكـريا الأنصـاري عندمـا قـال في وصـف الوهم ، (إنه ظل من ظلال الخيال القاصر) .

بيد انـه مع الدخـول في مـعـمـعـة الحـديث عن الوهم يتعين علينا معرفة مما أتت قدرتنا على التوهم .

فلو تمـعنا في الأمـر مليـا ، فـإننا سـنجـد أن قـدرتنا على التـوهم جـاءت لسـبب جـوهري لا يعـدو كونه أحـد العـوامل الكامـنة في ذواتنا مـخلوقـا مـعـهـا ، بل هو علة مـا يمـيـزنا عن غـيـرنا مـن المخلوقـات ، أنهـا قـدرتـنا على التـخيل والتفكير .

فنحن لسـنـا كـبـاقـي الحـيـوانـات غـيـر القـادرة عـلى استنباط الأفكار أو خلقها ، ولذا فهي لا تعقلها ومن ثم لا تخيفها ، نحن لنا قدرة فذة على التخيل ثم التفكير فيمـا هـو حـقـيـقـي يمكن لمسه مـاديا أو برهنتـه عـقـليـا ،

وفيما هو متخيل لا يصمد في مواجهة أي من الاختبارين .

ولكننا عندما نتوهم فإننا نأخذ الجانب السلبي من هذه القدرة ، عندئذ ينحرف بنا التفكير ، ويشتط بنا الخيال عن سبيله القويم .

وحينئذ نستطيع بوسائل غير حقيقية إخضاع عقولنا المرنة لتصور إمكانية حدوث ما نتخيله ، فقد نخلق لأنفسنا افكارا مرعبة نعي معانيها فنبدا بإخافة انفسنا حتى وإن لم تكن هناك أسباب او دواع حقيقية تنحرف بنا إلى ذلك الخوف إلا ما تجود به انفسنا من أخيلة.

إذن نحن في بعض الأحيان لا نخاف شيئا واقعيا ، إن ما نخافه لا يعدو ما تأتي به مخيلتنا من أفكار غريبة .

فمجرد أن يقودنا خيالنا إلى التفكر إلى ما نجهله من أمور حياتنا ، خاصة تلك الأمور التي ليس لقدرتنا السيطرة عليها أو تكيّفها حسبما نرغب أو نريد حتى تقض مضاجعنا .

فالإنسان دوما يرتعب ويرهب مما لا يعرفه.

وأشد ما يرهبنا الموت الذي قد يفاجئنا في أية لحظة ونحن لا نستطيع رده ، إلى أن نتم كل

مخططاتنا المرسومة التي ما إن ننتهي من شيء منها إلا ونبدأ من جديد في تتابع لا يريم ، ولا نهاية له إلا بنهايتنا .

او قد نفكر بأنه قد تحل بنا أية مصيبة لا قدرة لنا على ردها او حتى مجرد تحملها ، أو نكون خائفين مما قد يفشل كل أو بعض من آمالنا التي لا حدود لامتدادها .

و غير ذلك كثير فما أكثر ما يرد على خاطرنا من تلك المخاوف.

فهذه القدرة على التفكير المستقبلي وقلقنا تجاهه ، تخيفنا أشد الخوف وعندئذ يستبد بنا رعب لا طاقة لنا باحتماله لدى إحساسنا بالعجز عن حماية أنفسنا من تلك القوى المجهولة المدمرة لوجودنا في أية لحظة ، وعندئذ نتخلص من مفهوم لا يستحيل علينا فهمه إلى مستحيل لا مفهوم له ، فنلجأ إلى الوهم والخرافة طلبا لأمان زائف لا يحقق لنا الطمأنينة الحقة .

وكلما أزداد إحساسنا بالعجز عن امتلاك المصير افضى بنا الأمر إلى الإصرار على الرفض بالتسليم وعدم الرضا بما هو متاح بين أيدينا ، فتزداد تبعا لذلك قبضة الخوف على أفئدتنا ، وحينذاك ما أيسر أن نقوم بخلق حاجز من الأوهام الفكرية لأنفسنا ، نلجأ إليها طلبا للحماية نداري خلفها إحساسنا بالعجز عن

حماية أنفسنا. وحينئذ تتمكن قبضة الأوهام من إحكام سيطرتها على أذهاننا في رضا غير واع منا لشدة ما نحن فيه من رعب .

إن قدرتنا على التخيل والتفكير هي ما يدفعنا إلى القلق نحو المجهول من مصائرنا ، وهي ما يدفعنا إلى خلق أوهامنا ، ثم التشبث بما خلقناه .

وبطبيعة الحال تكون درجة غياب ذلك الوعي نسبية بحسب ما نقوم به من تمكين لقبضة الوهم على عقولنا .

والسؤال الذي يطرح نفسه .

من يعيننا ويخلصنا من إحساسنا الذي يشعرنا بذلك العجز ؟

أو من يقوم بمساعدتنا على محاربة تلك القوى المرعبة ، والمجهولة التي تخيفنا وتهدد طمأنينتنا ، فتعرقل مسيرتنا نحو الرقي وتجعلنا نتشبث بالخرافة ونغرق في الوهم ؟

هل هو الوهم حقا القادر على فعل المعجزات لحمايتنا ؟

مما يدعونا إلى التمسك به بأيدينا ، وبأنيابنا وبكل قدرة لنا على الإمساك ، بل وبكل ما نملك من قوى التفكير في رؤوسنا .

أم هو الذي يدفع بنا دفعا نحو هذا التخبط والالتواء ؟

و هل لذلك الوهم من بديل نستعيض به عنه لكي ننجو وننحو نحو مَسالك ممهدة تساعدنا على النهوض من كبوتنا التي أخذتنا إلى هذا السبات الطويل .

ففي رأيي أنه إذا أردنا التخلص مما يقلقنا فليس لنا من بد سوى البحث والتقصي عن طرائق من التفكير تنير لنا بصيرتنا لكي نتقبل القصور في ذواتنا بموضوعية شديدة ، تجعل رضاءنا بالواقع الذي لا بديل له ممكنا ، مما يحصننا من الوقوع في براثن الألم الناتج من خيبة الأمل، وعند ذاك نداري ذواتنا من ذلك الرعب المستبد بنا والذي يكاد يشل قدراتنا على التفكير السليم مما يلجئنا إلى التفكير بذلك الوهم بطرائق أكثر سهولة وآنية وقريبة المدى ولا تكلفنا مشقة .

والآن لنفحص الشخصية المتوهمة علّ ذلك يقودنا إلى فهمها .

الشخصية المتوهمة:

لا بد لنا من معرفة شيء عن الشخصية المتوهمة من غيرها .

كما يتعين علينا أن نستعرض انواعا أو نماذج من الشخصيات الإنسانية التي قد تقع تحت نير الوهم .

إن الشخصية المتوهمة لا تتمتع بأي نوع من القدرة الكافية على التحليل المنطقي لما يعرض لها أو عليها من أمور وأفكار ، أو أن قدراتها على التحليل المنطقي تقف بها عند حد معين ليس في مقدورها تجاوزه.

لأنها قد تأخذ الأمور النظرية أو العملية المعروضة أمام بصيرتها بصورة إجمالية ، من دون إدراك لكل أو لجزء من تفاصيل تلك الأمور التي تحتاج إلى تفكيك وتجزئة لتبيان صيغ مكوناتها التي سوف تقودها في النهاية إلى تحليلها ومحاولة إعادة صياغتها بمعطيات تؤدي إلى معرفة تفاصيل كل المفاهيم المكونة لتلك الأمور ، فإن عجزت الشخصية عن ذلك يبدو الوضع أمامها كما هو عليه حين تعرضه لها في أول الأمر ، وبطبيعة الحال فإن ثمة نسبا متفاوتة في هذه القدرة التحليلية بين شخصية وأخرى من جهة ، وبين الإنسان وغيره من الحيوان من جهة ثانية .

فالفصائل الأخرى من الحيوان ، تلك التي هي أدنى

مـرتبـة من الإنسـان في الـقـدرة على الـتـفـكيـر تخـتـصـر منـظورهـا في كل مـوجـودات الـكون إلـى نمط شـيـئي متـسـاو في الماهيـة تقـريبـا وإن أخـتـلـف في الشكل الذي ريما تدركه بغيـر وضوح ، فهي غيـر قادرة على استـشفاف مـا وراء ما يعـرض لهـا أو ما هو فـي دواخل تلك الأشياء أو مـاذا ينطوي تحـتـهـا من بنـية تسـببت في وجـوده على هذا الشكل أو ذاك ، وعــاجــزة عن الـبـحـث او عن فــهم تـراكـيـب ذلك الـشـيء الـتـي أدت بـه الحــال إلـى إفــراز معطيات خاصة له فقط .

فـإذا رمـزنـا للشيء الذي تراه الحـيـوانات ، بالرمـز (أ) فإن عقلها يفسر لها أن :

(أ) = (أ) = (أ) لا تـتـعـدى مـقـدرتهـا على الـتـفـكيـر مما يتكون هذا ال(أ).

و يكون إدراكهـا له في حيز الكم غيـر المجزأ مـهمـا كـثـر تعـداده لأنهــا لا تســتـطيـع إطـلاقــا إدراك الأشــيــاء بمفهومها الـرقمي أو الكيفي ريما إلا بضآلة لا تعتبر.

أمــا الإنسـان فـعلى العكس من ذلك ، وأن كـان ثمـة الكثـيـر من الـتـفـاوت بين الـقـدرات الـتـحليليـة بين إنسـان وأخر يمكننا تمثلها بالآتي .

فإذا كان البعض يرى أن (أ) = ب +ج

وهو اقل مـا يمكن من القـدرة الذهنيـة التـحليليـة للـكم والـكيف حـيث أن (ب) يضـاف إلـى (ج) و(ب) يختلف عن (ج) كما أو كيفا أو الاثنان معا

فإن الأكثر قدرة بالإضافة إلى ما سبق ، يرى

إن ب = (أ) – ج

وأن ج = (أ) – ب

ولأكثر قدرة من هذين الاثنين يقوم بتحليل ، ب ، ج إلى مكوناتهما ، إضافة إلى ما سبق أيضا ، فيرى

إن (ب) = (س–ص)

وأن (ج)= (م+ن)

إذن فأن أ = (س–ص) + ج

أو أن أ = ب + (م+ن)

أو أن أ = (س–ص) + (م+ن)

(بالحساب الكميّ والنوعي للمادة) في كل الأحوال وإذا أعطينا (أ) رمزا رقميا وجعلناه يساوي واحدا فأنه يرى أن .

أ = ب+ج = ١

وأن (س–ص) + (م+ن) = ١

(بالحساب الرقمي لمادة) ، وهلم جراء ..

إلى غير ذلك من الاحتمالات اللانهائية لمعطيات هذه الرموز المفترضة ، لقد استعملنا الرقم (١)

للتبسيط فقط، ففي مقدور الشخصية القادرة على التحليل أن تفكك الكميات الحقيقية إلى مقادير اخرى ، أو تجزئها إلى مكوناتها إلى نهايتها ، وترجعها إلى عناصرها الأولية ، إما في الأمور النظرية يمكنها متابعة سلسلة ما تنظر له إلى مالا نهاية ، بحسب قدراتها على التحليل وفهمها لدواخل الأمور ، من منظور الأفكار المجردة أيضا .

وبما أن القدرة على التحليل سمة طبيعية للإنسان غير مكتسبة بالتحصيل التعليمي ولا مرتبطة به ، وإن كان من البداهة أن هذا القول لا يبخس التحصيل المعرفي ، بل يقر إن التعليم يساعد في تعجيل القدرات التحليلية ، او اية قدرات مهما كان نوعها فيزيدها صقلا ومقدرة .

إذن ، لا يشترط في الإنسان أن يكون واسع المعرفة مطلق الثقافة لكي يكون واعيا لمسببات الأوهام ، وله القدرة على التمييز بين حقائق الأمور وخيالاتها ، فالوعي بمنطقية الأمور التي تعرض له في مقدوره تبينها وأن أعجزته أدواته المعرفية عن التعبير عنها بشكل جيد.

فقد تكون للشخصية حصيلة ضئيلة من المعرفة ، وقد يكون كم المعلومات التي تحصرها ذاكرتها قليلة ، ولكن مع ذلك ، تكون لها مخيلة استنباطية قادرة على

التحليل ، ومعرفة ما هو حق ، وما هو باطل فيما يعرض أو يستعرض أمامها من أمور ، والعكس صحيح بغير إطلاق.

والآن فلنر بعض نماذج من تلك الشخصيات ذات القدرة الواهية في مرجعيتها التحليلية ، ونتمثلها بافتراض ، أنها على قدر ما تملك من معرفة ذات وفرة وشأن كبير ، إلا أن ذاكرتها تخزن تلك المعارف كما يخزن الوعاء الأصم جمعا من الأشياء المتعددة الأغراض ، في الإمكان الرجوع إليها عند الحاجة ، ولكن ليس في مقدور ذلك الوعاء التفاعل بما يلقى فيه ، ومن ثم مجانسته بنسيجه وفرز نسيج جديد ، قد يكون فريدا وبمعطيات أخرى ، ومن ثم يستخرج لنا بعد ذلك شيئا تطوله أيدينا .

نأخذ بهذا التشبيه ، مع الاعتراف بوجود الفارق ، بكل تأكيد بين الوعاء الأصم ودماغ الكائن الحي مهما بلغ من ضآلة فعالياته.

ومع ما نراه من سوية هؤلاء الناس الظاهرة لنا من دون عيوب أو مآخذ ، إلا أن هذا النوع من البشر هم الأكثر تعرضا للتأثر بالأوهام من غيرهم .

وهناك آخرون قد لا تكون هذه الطرائق في التفكير نابعة من خلقة غير سوية في ذواتهم ، وإنما نشأت لديهم من ظروف محيطة بهم كما يحيط السوار

بالمعصم ، وسلطت تأثيرها عليهم بقوة اقوى منهم ، ممارسة عليهم ضغوطا فكرية شديدة التأثير ، وهم بعد في بدء المراحل الأولى من تكوين فعالياتهم العقلية ، فحدت من تبلور وعيهم بالأمور ، وحجمت من القدرة الكافية على المعرفة بكنه الأفكار ، وأحيانا كثيرة تخذلهم البيئة نفسها وأن كانوا أسوياء إذا وقعوا تحت وطأة لا قبل لهم باحتمالها من تلك الضغوط التي لا قدرة لهم على الانفكاك منها .

إذن من هذا نخلص إلى أن الوعي ، لا يقدّر بكم التحصيل المعرفي ، ولكنه يعتمد أولا وأخيرا على قدرة التحليل المنطقي التي يمتلكها الشخص تجاه ما يعرض له من أمور ، بعيدا عن أي ضغوط جبارة تمارس عليه ، إلى أن تخضعه إلى سلطانها وتجعله في حالة من الرضا لما هو واقع تحت نيره ، و قد يقاوم بكل شراسة وعدوانية كل من يحاول تبصيره بما هو عليه من ضلالة ، متمسكا بأوهامه متسربلا بها في كل خلية تنبض في عقله وحينئذ تحدث الإعاقة التي لا ينفك عنها أبدا .

(الخرافة):

لقد سبق تعريف الوهم ، بأنه الفكرة ، أو مجموعة الأفكار المؤدية إلى تغليف الذهن ، بمعطيات بعيدة عن المنطق ، وعرفنا طرائق التفكير للشخصية المتوهمة إذن ففي هذه الحالة ، علينا أن نعرّف الخرافة ، فنقول أنها المقولة التي يحاك منها نسيج الوهم والتي تجعل عقل المتوهم خاضعا لسلطانها .

فأثناء ممارسة الخرافة على أنفسنا يعترينا خوف لا نعرف مصدره بسبب ما توحي به تلك الخرافة لأذهاننا القادرة على التخيل من مشاعر الرعب التي تضيف أبعادا جديدة من الخوارق على معطيات تلك الخرافة ، وعندئذ تهز قبضة القلق طمأنينتنا ، وبدلا من الإحساس بالأمان الذي نبحث عنه حين تقبلنا الاستماع إلى تلك الخرافة ، بدلا من ذلك ، نزداد خشية ورهبة من تلك الإخافة المجهولة المصدر والهوية، وكلما كبرت مخاوفنا تملكتنا الخشية بصورة أعظم من مجابهة تلك القوى الخفية الأقوى منا ، والتي يصعب علينا معرفة كنهها ، فيدفعنا ذلك إلى ان نلجأ بصورة متهافتة إلى مصدر الخوف نفسه، أي إلى المجهول مستعينين بالخرافة مرة أخرى طلبا للحماية ، كالغريق المتمسك بقشة وهو يعلم أنها لن تنقذه من مصيره المحتوم ، أو كالمستجير من الرمضاء بالنار

وكلتاهما ستحرقه ، وحينئذ ترتفع تبعا لذلك درجة تعلقنا بالخرافة بحثا عن الخلاص ، بيد أن لا خلاص مما نحن فيه فالنتيجة أننا نضع ذواتنا في دائرة مغلقة من المجهول وإليه ، وكأن السبب يؤدي إلى النتيجة والعكس أيضا .

ولكن قبل الخوض في غمار الخرافة ، فمن المستدعي لنا محاولة معرفة ما الذي يدفعنا إلى تصديقها .

ما هو سبب انحرافنا الفكري نحوها ؟

ولماذا نستعذب القصور في وعينا تجاهها ؟

إن ثمة سببا قوي وجوهري ، يدعونا إلى ذلك .

وإن الأكمة لها ما وراءها ، فلابد أن ثمة ما هو أكثر من هذه الأمور الواضحة للعيان تدفعنا إلى الجري خلفها .

والآن لنر ما نحصد .

واهم ما نحصده ، أن البعض من أفراد الإنسانية يريد أن يكون كل من تبقى بعده مغيبا ذهنيا ، لكي يتم له تنفيذ المخططات المرسومة لخدمة مصالحه ، ولذا فقد أُستغلت الخرافة بعمد وإصرار كل قوى التخيل لدى الإنسان وأُستغل رعبه القديم مما يجهله من

أموره ، وخوفه على مصيره ، ووجه نحو كل ما يضلله عن طبيعته الحقة ، أي عمل على تجهيله بكل اقتدار . لقد وُجه الإنسان المتوهم باستراتيجية فكرية مرسومة بعناية ومعبأة الثغرات بما لا يدع له الفرصة للإفلات منها.

وليت الأمر يقف به عند هذا الحد ، بل انه يتعداه إلى ما هو ابعد ، أي إلى ما هو أسوأ من ذلك ، لقد أُريد إن يعتريه ما يشبه الخلل في طرائق تفكيره في كل أمر من أمور حياته وفي كل شأن يعرض له وذلك بجعله يلجأ إلى مكافحة ومنافحة كل ما من شأنه أن ينير له ظلام ذلك التيه الفكري الغارق في الضلالة والإعتام ، بأن يصدق كل الخوارق التي تنسب إلى الخرافة وما قد تجلبه في أساطيرها من الأوهام ، وبالتالي يتعلق أكثر فأكثر بكل ما تأتي به من شطط الأفكار .

فيصبح بدلا من محاولة القضاء على ما يثبط من مقدرته على الفهم ، بمحاولة اشتقاق طرائق سليمة في التفكير ، لو احسن مزاولتها سوف تساعده على تجاوز ما هو فيه ، أو تدله على مسارب ودروب تبعده عن مسببات الأوهام ، ومن ثم معالجتها بنمط من التفكير الحقيقي ، الذي سيقوده إلى حل ما استعصى على فهمه من أمور .

بدلا من ذلك تجعله الخرافة يلجأ إليها مرة بعد أخرى، مستعملا شتى وسائلها ، لتغيير ما لا يرضى عنه من أموره الحياتية باللجوء إلى السحر أو غير ذلك من أمور الشعوذة .

ولكن من المفارقات أنه في أحيان كثيرة يقوم قطاع كبير من العامة بمؤازرة مروجي الأوهام ، ليس لأنهم واقعون تحت تأثيرها ، ولا لأنهم منقادون إلى الخرافة من جراء اقتناع وإيمان بها ، وإنما يفعلون ذلك عامدين متعمدين لأسباب تفرعات من المصالح الصغيرة التي تتعلق بالفائدة الآنية للأفراد والتي لا يمكن حصرها لكثرة تشعبها ، وقد يكون البعض منها معروفا شبه معلن يعلمه القاصي والداني ، أو خفيا لا يلحظ إلا من أصحابه ذوي الدهاء ، لشدة التواء الوسائل التي يسخرونها لها .

وهناك أيضا مفارقة أخرى لعلها أهم من الأولى ، ولكنها مع ذلك تدعو إلى السخرية فأحيانا كثيرة نرى أن من يسعون عامدين إلى ترويج تلك الخرافات لخدمة أهدافهم قد يقعون هم أنفسهم في فخ الوهم رغما عنهم ، وذلك تحت تأثير ما يروجون له ، فينضوون تحت لواء الخرافة وأوهامها من دون أن يدروا، ومن دون معرفة بأن ما يقومون به ليس حقيقي، كمن يكذب كذبة على غيره ثم يصدقها على نفسه ،

وهنا تكمن المصيبة المستعصية على الحل فيما لو كان ذلك المروج شخصية عامة لها مكانتها كأن يكون كاتبا مرموقا أو صحفيا مشهورا أو داعيا جماهيريا لمنحى من مناحي الحياة العامة.

وهنا يعم البلاء نتيجة لنشر كم أكبر من تلك الخرافات بين الناس.

والغريب في الأمر أن ذلك تناما في الوقت الذي تناما به وعي الإنسان الحاضر وبات على معرفة بالمضار التي تجلبها الخرافة ، وأمسى قادرا على الوعي بقدراتها التدميرية للعقول ، وأضحى قاب قوسين أو أدنى من معرفة الكيفية التي يستطيع بها القضاء عليها قضا مبرما.

ولكن على حين غفلة من الزمن حدثت الانتكاسة ، عند بروز مصالح معينة تجعل من تضليل الناس وتجهيلهم وسيلة لنيلها ، فأعادت كل الإشعاعات الفكرية التي بدأت تنطلق في بعض مناطق من العالم النامي كما يحلو للبعض تسميته ، فطمرتها وأطفأتها لكي تعيدهم إلى بدء أفكارها القديمة التي عفا عليها الزمن ، فقد استنهضت الخرافة من مخابئها المطمورة في العقل البشري البدائي ليلبسها الإنسان الحاضر كحلة قشيبة .

يحدث ذلك ليس في العالم النامي فحسب ، فمن شديد الأسف ، أن العالم الإنساني في شتى بقاع الأرض وفي عصرنا المشع هذا مازال يزخر بمحصلة ضخمة من الخرافات التي أعيد أحياؤها والتي ما زالت تنبض ولكنها في العالم المتحضر كالشرر المخبوءة تحت الرماد تحتاج إلى من ينفخ فيها ، أي ليس كما هي الحال الذي نحن عليه من الفرض القسري لكي نرغم على تصديقها بالقوة التعسفية وإلا وصم من يقاومها بالمروق.

بالإضافة إلى أننا لم نكتف بما يضخ لنا عبر وسائل مرسومة ومخطط لها من غيرنا ، بل غدت لدينا مرونة تجعلنا نحن أنفسنا نمارسها بمخيلة تستنبط المزيد في استحداثها وتنشيطها وذلك على صفحات مطبوعاتنا ووسائل أعلامنا المطبوعة والمرئية والمسموعة ، فكثيرا جدا ما شاهدت بثا لمسلسلات تلفازية محلية وغير محلية تحتوي نصوصها على استعمال السحر لتغيير واقع غير مُرّضى عنه .

وإذا كان هذا ما يقال عن الكلمة المكتوبة والمرئية ، فما يوجد منه أكثر بكثير في الحديث المتداول بين عامة الناس، فالسامع إلى مجموعة منهم ، في مجالسهم الخاصة أو العامة وهم يتداولون تلك

الخرافات يملؤه العجب العجاب ، فما أكثر أحاديثهم عن السحر والسحرة وقد علت سحناتهم إمارات الجد والاهتمام المصحوبة بالخوف والفزع .

ولابد لذلك السامع من أن تعتريه واحدة من حالتين وهو بين ذلك الجمع المغيب ، فإما أن يحس بالغربة وينتابه شعور بأنه يعيش في زمن ليس له ، بسبب من عدم قدرته على التكيف مع تلك المجموعة من الناس لعدم اقتناعه بما يسمع ، أو أنه يقع في خضم الوهم وينجرف محتضنا الخرافة وقد اعتراه ما يعتري ذلك الجمع من تغييب.

من ثم ينحدر إلى ما يعوق نموه الذهني متأثرا بالخرافة تأثرا عميقا صادا له عن تبيان الكثير من لباب الأمور لكثير من الأشياء ، ومنحرفة به إلى ما يعرقل مسيرته الفكرية ، وأحيانا حتى في ممارساته لأمور حياته اليومية .

فالاعتقاد بالوجود المؤثر للسحر ورؤية الجان وتلبس الإنسان أو الحيوان أرواحا شريرة أو طيبة والخوف والتشاؤم من القط الأسود والبومة ، أو الاعتقاد بالإصابة من الحسد أو العين أو محاولة كشف المستقبل وقراءة الطالع لمعرفة ما تخبئه لنا الأيام ، أو التضرع إلى (الطوطم) طالبين منه إحداث إحدى معجزاته

لتغيير ما نحن فيه من العجز والإحباط ، أو تغيير مسيرتنا الحياتية نحو الأفضل أي نحو ما نرغب فيه ، والقائمة طويلة لا تنتهي بسهولة.

كل هذا نريده بتلك الوسائل السهلة المضللة دون محاولة منا إلى السعي الحقيقي لإحداث ذلك التغيير الذي نطلبه.

وسوف نورد نتفا من تلك الأمثلة لتلك الخرافات المتداولة بين العامة من الناس لنرى مقدار الانحطاط الذي بلغته عقول البعض منا.

وإليك نموذجا متواضعا منها ، وهى حكاية سمعتها من مخرج تلفازي حاصل على درجة أكاديمية في مجال عمله ، قال :

كنّا في رحلة صحراوية نصور فلما ، وتاه أحد زملائنا ولم نجده بعد ذلك أبدا ، وبعد فترة كان يأتي إلى مجلسنا حمار يقف بالقرب منا وكانت عينه تدمع باستمرار.

حينما تساءلت ما هذا الحمار الذي لا يريد أن يريم عنا، فرد علي أحد زملائي من العالمين ببواطن الأمور .

إن هذا الحمار صاحبنا الذي تاه ، لقد خطفته جنية ، فهي تجعله حمارا في النهار وتستعيده في الليل كرجل ، ولذلك تراه يبكي كلما رآنا .

وقد استشاط ذلك المخرج غضبا ، حينما ضحكت ساخرة وتساءلت:

كيف يكون للجنية قدرة على تغيير الخلقة البشرية؟ حتى إذا أقررنا بوجودها جدلا ؟

ولم ينتبه إلى الشق الأول من السؤال لشدة تركيزه على نفي وجود الجان ، فقد أجاب بحدة :

ولماذا علي أن أُكذب الرجل ؟ والجان مذكور في الكتب المقدسة.

ها هو الرجل قد استعمل حق (الفيتو) لكي يغلق باب النقاش ، فهو لم يكتف بما أورده من خرافة ، بل حاول أن يصادر الرأي الآخر بما يمنع فتح باب المناقشة فيه ، سواء كان على حق أو على باطل .

فلو حاورته بعد ذلك فسوف أجر مرغمة إلى الحديث فيما لا يجوز التحدث به بسبب تلك الحواجز التي يتوجب على المرء التوقف عندها ، ولكن إذا تخطيت تلك السدود مجازفة واستعملت حريتي في التعبير ، وأنت لن تتغلب على منطقهم الأعوج ما لم تستعملها ، عندئذ فستكون من المارقين الذين يجوز عليهم إقامة الحدود .

فهل ثمة أغرب من ذلك الموقف ؟ وهل سُمع بأغرب من تلك الحكاية ؟ وهل ثمة عقل مطوق بالإعاقة أكثر

من عقل راويها ، أو من صدّقها ثم رواها بعده ؟ أظن انه لم يسمع بأكثر منها نشوزا للعقل ، إلا حكاية الخراف .

فقد كنت أيضا في جلسة أخرى مع العديد من الناس وكالعادة جاء الحديث عن السحر والجان فهو الحديث المستمرئ لدى الكثير من العامة ، فقالت سيدة نالت شهادتها التعليمية من إحدى جامعات فرنسا تروي حكاية عن مصدر موثوق به كما تدعي ، وتصدقها كل التصديق .

قالت :

ان ذلك المصدر الموثوق به كان على سفر إلى أحد دول المنطقة بعربته مع أحد الأهالي لتلك المنطقة عندما مرا بطريق جبلي صحراوي منقطع ، فشاهدا عددا من الخراف تجلس على قوائمها الخلفية براحة تامة ، وأمام كل واحد من تلك الخراف إبريق من الشاي ، وحينما سأل صاحبه لماذا هذه الأباريق أمام هذه الخراف ؟ أجابه:

إن تلك الخراف من الجان تلبسوا هيئة الخراف ، وهم الآن في جلسة سمر لشرب الشاي

فلما سألتها أيضا ، وهل تصدقين ما رواه ذلك الشخص؟ أجابت بكل ثقة وكأنها هي الأخرى تستخدم

(الفيتو) لكي تخرس السنة من يجرؤ على مناقشتها.

الا تؤمنين بالكتب المقدسة ؟ إن ذكر الجان ورد فيها، ولذا يجب علي الا أكذبه .

هل تلك المرأة وذلك الرجل ، وما أكثر أمثالهما !! على هذا القدر من السذاجة وهما المتعلمان ، أم لأن مخيلتهما أشبعتا بمثل هذا السقط من الأفكار منذ الصغر وعلى مراحل تربيتهما فباتا ينظران إلى مثل هذه الأمور كما ينظران إلى عبادتهما بالتصديق المقدس .

وبالطبع لم أستجب لمحاولتها مصادرة رأيي ، فمن المنحى الذي تؤثره قلت لها :

وأن لم أومن بتلك الكتب المقدسة ، فإن من وضعها لابد وان يكون على قدر كبير من الحكمة ، لابد أنه كان يريد إرشاد الناس إلى طرائق الخير ، بما يستبعد أن يدعو إلى مثل هذه الخرافة ، ولكن أنت ، هل قرأت تلك الكتب المقدسة التي تستشهدين بها ، قراءة صحيحة متمعنة مستقرئة المعاني مستنبطة الأفكار ، أم لأنك تعلمين فقط أن السحر والجان ورد ذكرهما فيها من دون أن تدققي في المعنى فيما تقرئين ومن ثم تتعرفين على كيفية وسبب ورودها.

أن قراءة مبسطة ومسطحة كهذه تسيء إلى تلك الكتب المقدسة ، والاستشهاد بها على هذه الصورة تقلل من احترام العقول لها ، وقد تكفر بها ، فهل هذا ما ترغبين فيه ؟

ففزعت من تساؤلي الذي طالبتها بإجابته ، ولكنها لم تتزحزح أيضا عما كانت تصدقه فيما روت .

والانكى من هذا أن ذلك الجمع تدخل لتأييد حكاية الجان ، فقام الكل يدلى بدلوه بحكايات أغرب ما يشتط به الخيال حتى ليخال المرء وهو جالس بينهم انه جالس إلى جمع من المعتوهين ، أو إلى مجموعة من الأطفال الذين لم يبلغوا سن الإدراك بعد ، وعلى الرغم من هذا الانطباع الذي داخل نفسي فإنني لم أتخل عن الجدل الذي طال دون جدوى ، فقد تدخلت امرأة متعلمة أخرى تراس هيئة تدريسيّة لتعليم الطالبات بعد حصولهن على الثانوية العامة ، فقالت لتأييد حكايات الجان :

أن جارة لها بعد أن عادت من التسوق وضعت الحقيبة الورقية في غرفتها ، وفي داخلها الأغراض المشتراة ثم لم تلبث أن سمعت أصواتا من الجان تتحدث لها من داخل تلك الحقيبة .

وهنا فاض بي كيل العجب فبدلا من أن تفكر تلك المرأة المتعلمة أن تلك الجارة قد تكون جنت أو أصابها

هوس عندمـا روت لهـا تلك الحكاية ، صـدقت بكل سهولة وسذاجة أن الجان تتحدث إلى جارتها من حقيبة الورق .

ولم استطع زعزعة أيمان ذلك الجمع قيد أنملة بنبذ تلك الخرافات الثلاثة ، فسكت على مضض تلفني دهشة وأسف لا مزيد عليهما .

أي عقل جرى مسخه بالتربية الخرافية فجعلته مغلفا بالأوهام على الرغم من أنه قد نال قسطا من التعليم ومع هذا يصدق ببراءة الأطفال كل ما يروى دون مستوى المنطق والعقلانية ويتقبلها كقضايا مسلم بها دون نقاش .

إذا كانت عقول غالبية البشر تأخذ بمثل هذا المنطق الذي دون درك السذاجة فتصدق بمثل هذه التلقائية مثل هذا السقط من الأفكار ، فكيف الحال بها عندما تصاغ لها الخرافة بسفسطة ماهرة لا يكاد يرى من خلالها ما يخالطها من أفكار أخرى يرمى منها إلى خدمة مصلحة ما ، تعطي الفائدة لأربابها .

قد يكون لمثل هذه العقول عذرها ؟ وقد مُورس عليها تعتيم ذهني منذ طفولتها حدّ من قدرتها على ممارسة ملكاتها في التمحيص واجبرها على أخذ الأمور على علتها .

فهذه العقول البشرية نماذج لما يقع على الإنسان من فقد الإدراك السليم ، ومن المؤكد أن الشخص المغيب الوعي يسهل انقياده إلى ما يلقي في روعه من خلط في المفاهيم.

ولكن المصيبة أن هذا الإنسان المغيب يكوّن الكثرة الغالبة من البشر ، فالأمثلة على ما يتداول من تلك الخرافات لا تحصى وهي عصية على الحصر ، ففي كل جلسة تضم مجموعة من الناس ، لا تكاد تسمع إلا أن فلانا طلق زوجته لأن ثمة من عمل له سحرا ، وان علانا شفى من مرضه لأن والدته أخذته إلى من عمل له تعويذة وان أحدهم تعرض لمأساة في يومه بعد تعثره في اثناء سيره بقط حالك السواد أو انه سمع مصادفة نعيق بومة منطلقا من جهاز التلفاز .

حتى يظن السامع إلى ما يقال ، أن الناس بلهاء اجمعين ، أو باتوا مغيبين عن الواقع إلى وراء لا شيء يصدهم ويعيدهم إلى حقائق الأمور .

فان أردت مقاطعتهم وتبصيرهم بما لا يصح من تلك الأحاديث لا تلبث حتى ينبري لك جمع منهم يأخذك بالتسفيه وقد يتهمك بالكفر والزندقة محتجا بقوله بأن السحر ورد ذكره في الكتب المقدسة من دون أن يكون في مقدوره الأخذ في الاعتبار بكيفية

وأسباب ورود ذكره في تلك الكتب ، وما هي منطقية التفاسير التي سببت ذكره فيها.

وتكون المعاناة أشد عندما تتولى هذه المفاهيم الشأن العام .

ففي رأيي أن كل ما يخالف الطمأنينة ويقوض التعايش السلمي بين البشر كالقتل والسرقة والزيف والكذب والحروب وكل ما يهدد الآخرين في سلامة أبدانهم وعقولهم ومصالحهم العامة ، من أجل مصالح خاصة ، هي مقوضة لرقي الإنسان ، وهي تنشأ جراء تبلد الحس الإنساني لدى الأفراد و الجماعات مسببة إعاقتهم المزمنة.

وإذا كان هذا المفهوم مستغربا لمعطياته ، فأن الأشد غرابة أن يطال هذا التبلد إحساس الشخصية حول نفسها، فتتقدم على الانتحار غير حافلة بذاتها لتملكها يقينا وجدانيا زائفا يدفعها إلى تصديق خرافة تتلبس فكرة أيدلوجية مضللة عن قيمة الحياة الإنسانية لذاتها ، فتضحي بنفسها من أجل وعد ميتافيزيقي لا يحضا بأي بعد من أبعاد الحقيقة .

وسواء كانت الشخصية المضللة أو من ضللها لابد من أن تكون وصلت إلى أقصى درجة من تبلد الإحساس فعاقتها عن إدراك أن ما نقوم به يخالف الطبيعة الحقة التي تنشد الحياة السوية للبشر.

وإذا كان البعض منا معذورا بالجهل مرة ، فالمستنكر الف مرة من البعض الآخر لما حصلوا عليه من تعليم.

والأنكى من كل ما مرّ أنه ليس لنا من فكاك مما نحن فيه ، إذ إنه لم يكتف بنشر الوهم وتعميم الخرافة.

بل قد قاموا بردع كل من تسول له نفسه من أولئك المفكرين فيما لو حاول أحدهم مناهضة تلك الخرافات ، وما تجلبه من أوهام ، وحاول تبصير الناس بمضارها ، اي حتى لو حاول أحدهم الإطلالة ولو من باب مواربة والتلويح بما لديه للناس ، فقد يناله من المقاومة الكابحة ما ينسيه نفسه وليس ما يريد قوله للآخرين فحسب .

فسيف التهديد مسلتا على هامته ، إذ انه لا يجوز مناهضة أحد الثوابت التي يتوجب أن لا تزعزع ، وإلا الويل لما سيلاقيه إن لم ينضبط فيما يراد الانضباط فيه ، وقد نسوا أو تناسوا أن الثابت أصم لا يخدم حياة متحركة ، ويتعين زحزحته ورميه خارج منطقة الفكر الفعال .

هذا ما يتعرض له الناس بسبب تلك القوى المسيرة لهم التي اختصرت من أمد منظورهم إلى الأمور مسببة لهم عدم النضج لمفهوم الحياة ، وقد ساعد على ذلك حصيلة متراكمة من المدى الطويل الذي عاشته

الشخصية الإنسانية تحت ظروف مُعاقة أحاطت بها ، وجاءت لها من وراء خلفية تاريخية قدمت من عصور مظلمة فلم يعد في وسعها أن ترى ما خلف تلك الأفكار الضالة .

أجل ، هذا هو سبب العلة.

وإذ أردنا التخلص منها علينا أن نأتي بسبب آخر يزيح تلك الغمة عن عقولنا ، وذلك لن يتأتى إلا بوجود حرية التعبير الفكرية دون قيد أو شرط.

فالمقولات الفكرية المتعددة تمكن الموهوم من رؤية واضحة حول العديد من الأمور التي قد تلتبس عليه ، وتفتح له أفاقا واسعة لخيارات ربما لا يعرفها حول العديد من الرواء ، التي قد لا تطرأ له على بال عند تعرضه لضغوط توجه مساراته الفكرية .

إذن ، من يرسم لنا مصيرنا بوضوح تام لا لبس فيه ؟

لا أحد سوى أنفسنا .

الحرية الفكرية المعبرة:

يقول سبينوزا (في دولة حرة يقول كل إنسان ما يفكر فيه) .

ويقـــول د. سكوت بيك (علينـا بالشك في كل مـــا نعتقد انه صحيح حتى نصل إلى الحقيقة) .

ونقـول ،أنه ليس في قدرة أحـد أن يكون قيّما على مـا يفكر فيه الآخر حتى وأن كان ذا سطوة ، ولكن في قدرته منعه من التصريح بها .

إن المقـولة الثالثة محـقـقة حـتمـا ، وليس لأحد قـدرة على إيقافها في داخل العقل مهما أوتي من القدرة على قـوة الردع ، ولكنهـا غـيـر ذات جـدوى في واقع يقنن التعبير ، ولذا فإنه لا يمكن تحقيق المقولتين السابقتين عليهـا في مـجـتـمـعاتـنا النامـية ، ومن ثم التـخلص من إعاقتنا المزمنة .

و لو أفسح المجـال لحرية التعبير الفكرية بمقـولاتها العديدة لربما رأينا في أنفسنا من عوامل الرقي ما نراه الآن في تلك المجتمعات التي نعتبرها متقدمة .

ولكن قـبل أن نخـوض بأمـر تكبـيل حـرية التـعـبـيـر علينا التـحـدث ولو بنبـذة قصـيرة عن جانبي الحـرية ، كما نراها نوعين .

فالأولى : حرية عفوية حتمية شاملة مطلقة متسمة بلامبالاة ، وهي هبة الطبيعة للإنسان ، ناجمة عن خلقته ، ومشتركا بها مع بقية الحيوانات ، وفي مكنته أن يكون معها على درجة واحدة من المزاولة ، إن لم يستعمل قدراته الفكرية على تهذيبها والتحكم بها .

وعلى الرغم من أن هذه الحرية المطلقة هي التي تعتبر من القضايا المسلم بها ، ومحتومة بخلقة الإنسان ، بشكلها المطلق ، أي حتى وهي في حالتها الفوضوية ، وعلى الرغم مما فيها من طروحات مخالفة لما نرغب فيه من نهج لحياة سوية منظمة ، هي الحرية الحقة ، التي خلقنا عليها.

إلا أن الإنسان داب على الا يتعامل مع هذا النوع من الحرية المدمرة لكل نظام على الرغم من كونها هبته من الطبيعة ، وذلك لعسرها على التطبيق بما يتواءم واحتياجاته المنظمة .

والثانية : حرية منظمة مبالية لا يقدر على مزاولتها سوى الإنسان وحده فقط ، تتصف بإلزام الإنسان لنفسه بما يرغب في إلزام الآخرين تجاهه ، باتخاذه قيما ومفاهيم ، سن لها قوانين تحميه وتحمي منه ، نطلق عليها (الحرية الأخلاقية)، وبهذا خدم ارتقاءه وتطوره لما هو افضل له .

إنها الحرية النابعة من قدرة الإنسان على تبديل

المواقف بإرادته ، ولا يمكن أن نقول أن للإنسان حرية إلا إذا بدل بإرادته ما ينبغي أن تكون عليه حاله بالنسبة لغيره نتيجة لما يطلبه من الآخرين بالنسبة له .

وبما أن الإنسان يمتاز بخواص فكرية تجعله قادرا على السعي إلى تهذيب ما يحيط به من عوامل طبيعية ، وبما أنه في النهاية استطاع أن يهذب الطبيعة في الكثير من الأمور إلى ما يخدم سوية الحياة بالنسبة له ، فأيضا لن يكون عسيرا عليه أن يهذب فكره إلى ما يخدم حياته السوية .

لذا فنحن جميعا كبشر نتفق على أننا لا نرغب في النوع الأول من الحرية المشابهة لحرية الحيوان العفوية ، فلابد للعقل من أن يصل إلى نضجه الكبير بالممارسة ، ولابد أن يزيح من طريقه عاجلا أو آجلا ، الحرية المدمرة للحضارة ، المصاحبة لأفعال فوضوية من نوعها حتى وأن تعثر في بداياته .

ولكن بعد ذلك لابد من إطلاق الفكر الحر وفك قيده من دون استعمال أي من الضغوط التعسفية عليه .

ولكن هل بالإمكان فعل ذلك ؟ في مجتمعاتنا بالذات؟ وهي التي تم بها عسف كل الحريات وتم كبتها منذ البداية بأعذار شتى ، كالأمن السياسي أو حماية المعتقدات أو الالتزام بمفاهيم المجتمعات ، وما

أكثرَ الأعذار وما أوهى الأسباب التي يصاحبها بريق مسميات لا تدل قطعا على حقيقة ما يمارس باسمها .

ولعل النكبة ، تتمثل فيما يراه الآخرون مقياسا أو حدودا للحرية الفكرية المعبر عنها في مجتمعات كمجتمعاتنا النامية بصورة خاصة ، والخوف المزمن من مواجهة الرأي الأخر ، ذلك الخوف الذي أدى إلى صياغة قيود لفظية تكبل الفكرة عن الانطلاق بما يزيد عن قدرات المرء ليتخطاها .

فالسياسي المهتم بالشأن العام يضع خطا احمر يحرم عليك عبوره ويلزمك بالوقوف عنده ، وإلا اعتبرت خارجا عن الحد الأخلاقي للسياسة كما يرى عندما يكون في خضمها الذي يجلب له الفائدة .

والمتطرف الأصولي يضع حدا أطول استقامة وأسن شعرة يصدك به عن كافة توجهاتك وعليك عدم تجاوزه ، والأنكى من ذلك عليك معايشة معطياته قسرا فعليا ، وإلا اعتبرت خارجا عن الحد الأخلاقي للدين يباح عليك من اجله إقامة الحدود لنفس السبب السابق أي كما يراه قادته من المنحى الذرائعي ذاته .

والمجتمع يضع حدودا لمفاهيم لا حصر لها تمنطق توجهات مرسومة ، تستخدم في غالبيتها كغطاء لمعطيات الفكر السياسي والديني ، تجعلك تتعثر بها كلما حاولت الخطو إلى الإمام ، وان اجتزتها على

عـــسـرها اعــتــبــرت خــارجــا عن حــد تلك المفــاهيم المجتمعية.

وكأنها بمقولاتها الكابحة تنفذ بحرفية تامة مقولة افلاطون حول مدينتــه الفاضلة (اسبــرطه) حـينما اخطأ التقدير ، وسن قانونا مجحفا لكيفية ما يجب أن تدار مدينتــه ، حين قال : (إن كل مظهر من مظاهر السلوك البشري يخضع لموافقات دينية يحتكر الحاكم حق إصدارها).

فهكذا وضع حدا يفصل بين السلطة السياسية والحرية بذرائع دينية منذ اقدم العصور .

فإذا كانت هذه الفلسفة المكبلة للحرية نابعة في الأزمنة الغابرة سمح بتمجيدها في مجتمعات لم تر بعد منح أفضل منها للأفكار التطبيقية ، التي تخدم أهداف أصحاب المصالح في مجتمعات غير مجتمعاتنا الحديثة ، فهناك ما هو أفضل لنا ، ذاك هو النهج الديمقراطي الذي يجعل الأوراق التي تحمل أمثال تلك الفلسفات البائدة لا تصلح إلا أن تكون طعاما للفئران .

أجل ، إننا نرى أن أمثال هذه المقولات عفا عليها فكر آخر أكثر إيجابية ، هو الفكر الديمقراطي لخدمة حياة أفضل ، إذا كنا جادين لمقولات الحرية .

وما ينطبق على مقولات مثل تلك ينطبق على أحكام ومبادئ أخرى مشابهة لها عفا عليها الزمن ، ولكنا ما زلنا نزاولها .

ما أردت قوله أن علينا الا نلتفت إلى الوراء نتلمس خطوات السلف ونهتدي بأحكامهم على أمورهم التي لم تعد أمورا لنا على أية حال.

ومع هذا فنحن بطبيعة الحال لا نلقي بالملامة على فلاسفة وحكماء عاشوا عصرهم ، وفي نفس الوقت لا نلتمس لهم الأعذار ، ولكن نبصر بأن لا احد بمنأى عن الأخطاء ، وتطبيق أفكارهم التي لم تعد تجدي لمثل هذا العصر لمجرد أنهم فلاسفة عظام ما هو إلا عذر واه وواضح الزيف ، وفيه الكثير من التجني على وقتنا الحاضر وفي زمننا النير ، وبعد أن وصلت عقول البشر إلى ما وصلت إليه.

وثمة الكثير مما نسمعه من ذرائع تثبط الهمم في سبيل تبرير كبت الحرية ، فيقال من الأعذار التي تتخذ أمورا قد لا تبدو وثيقة الصلة فيما تسببه لنا من قصور فكري نتيجة للحرمان منها ، ولكنها على الرغم من ذلك تعمل على تغييب الأذهان وتسيطر على العقول سيطرة خفية ربما لا تلحظ

وفي هذا الصدد ، لعل من الأعذار المقبولة منطقا والمرفوضة تطبيقا ، ذلك القول ، أن الحرية المطلقة لها

جانبان متناقضان ، يجبُ أحدهما الأخر ، أو يقلل من فاعليته على الأقل ، أو يفسح المجال للجانب السلبي منه للقضاء على ما هو إيجابي فيه ، فقد يتم استغلال الحرية لاستخلاص الحق أو الباطل باستعمال القوة ، كما أن لحرية الرأي من مخاطر التأثير والدعوة إلى الفوضى الفكرية ما للأفعال الجسام ، إذ ما صاحبتها أفكار طروحات مخالفة لنهج نرغب أن تكون عليه الحياة ، حسب المفهوم العام العالمي الذي يمج الدعارة والإسفاف الفكري أو ما يدعو إلى القصاص أو القتل أو ما شابته الظنون من تخريب للمجتمعات وغير ذلك من أشكال الفوضى.

تلك المخاطر التي تصاحب الحرية من تأثير الذين يقودون الأمور الأخلاقية نحو الإسفاف في كل مجتمع ، فيطلقون حرية القول على عواهنه بطروحاتهم الداعية إلى الإباحية الممجوجة بما فيها من فجاجة وسوء تقدير للأخلاق العامة ، أولئك الذين لا هم لهم سوى إثارة الغرائز أو خلق الفوضى .

ولذا فإنه في المجتمعات النامية لا يمكن أن تعطى الحرية الكاملة للتعبير بصورة مباشرة ، كل على هواه ، لن تدع الواحد وحده المقرر ما ينبغي أن يقوله ، فقد ينساق الأمر به إلى المطالبة بتطبيق تلك الأفكار التي يراها مجدية من وجهة نظره على الرغم مما فيها من

تخريب ، ثم ننتظر بعد ذلك أن تستقيم الأمور في ذلك المجتمع .
لذا يتعين سن القوانين الكابحة لإيقافهم حماية للبشرية.

وتستمر المقولة المحسنة لكبت الحريات لتقول :

ليس ببعيد عن السمع والبصر ما حل بتلك المجتمعات من تناحر وحروب أهلية في البلد الواحد ، نتيجة لما حصلت عليه ولو بالقوة من حرية الفكر الفاعل والتصرف لتغيير نهج الحياة في مجتمعاتها ، كما ترى أنه حق من وجهة نظر مغرقة في الخصوصية، قبل حصولها على ذلك النضج الفكري ، لترى أن ما تظنه حقا لها يتعارض مع ما يظنه الآخرون حقا لهم ، وعلى العكس منها تماما .

أليست هذه نواتج لحريات لم يأت أوانها ؟

ألم يكن من الأجدى لو أن القائمين على الأمر لم يسمحوا بتلك الحرية ، لربما وفروا الكثير من الأذى على ناسهم . ؟

ولذا يتعين ألا تعطى العلانية الفكرية قبل الحصول على النضج الفكري الكامل لكل أفراد الإنسانية ، وهذا بادي الاستحالة في زمننا الراهن ، وربما إلى أزمنة مستقبلية سحيقة ، إذ لابد أن تكون تلك الحرية قاتلة

لتلك المجتمعات ، أي مجتمعات ، فالإنسانية جمعاء مازالت ترزح تحت وطأة قصور فكري فادح ، ولم تصل بعد إلى درجة النضج التام في طرائق التفكير لمزاولة التطبيق العلني للحرية الفكرية المعبرة ، وقد يلزمها مئات القرون لكي تصل إلى تلك الدرجة من النضج ولو كان غير ذلك لا انتفت الحروب بين الدول وانتفت الجرائم بين الأفراد بصورة كاملة .

فحتى تلك المجتمعات التي ندعوها بالمتحررة ، أو تلك التي تبدو من أكثر الدول تحررا هي من أولى من يدعو إلى نبذ الرداءة وازدراء الفوضى الأخلاقية لحصولها على النضج الفكري - قول حق يراد به باطل - من دون أن يوضحوا أن أفراد تلك المجتمعات مرت بما تمر به المجتمعات النامية الآن ، ولم تصل إلى نضجها الفكري إلا بعد أن وهبت لها الحرية وبعد ذلك اتخذت هذا المنحى من الممارسة كتعارف قائم ، دون ضغط أو قسر على حرية التعبير ، ولم يطرأ عليها تبدل أو تغير على الرغم مما وصلت إليه من توسعة في إطار الحرية .

ولكنهم يستمرون في النفاق فيقولون:

إن تلك الدول لديها قوانين تسن لحماية الأخلاق العامة حتى في مجتمعاتها الأكثر تطرفا في المناداة بالأخذ بالحرية التعبيرية

وتعتبر تلك القوانين المقننة للحريات من الأمور التهذيبية التي أدخلها الفكر الإنساني لحماية سلوكياته من الانحطاط ، كي لا يماثل السلوك الحيواني في عضويته .

وأيضا تلك القوانين لها حدود قصوى تبدأ منها ، أو تنتهي إليها إن صح القول ، مثلا ليس من الحرية إجبار الناس على تداول أشرطة الفيديو الخادشة للحياء أو المطبوعات الإباحية ، أو إجبارهم على قراءة كتابات فاحشة على الرغم من وأنوفهم ، وأيضا ليس من الحرية التلفظ بألفاظ نابية ، أو خارجة أمام شخص لا يرغب سماعها ، وتعريضه لمثل تلك الأمور بقصد أو من دونه ، فكل هذه الأمور معاقب عليها في كل بلاد العالم ، ومن أراد غير ذلك فعليه الاختصار بها بعيدا عن الآخرين ، بسبب أن لديهم وضوحا في الرؤية لمفهوم الحرية ، ومعرفة بأن القول قولان ، قول بديع له مضامين فكرية ، وقول لا يقول شيئا سوى ما سف وهبط من المعاني .

وأنه إذا كان الأمر كذلك في المجتمعات المتحضرة ، فما بالك بالمجتمعات التي هي أكثر تعاسة في هذا المنحى بالذات ، تلك التي لا تستطيع تمييز خط بسم الإبرة يفصل ما بين حرية التعبير الفكرية بما جلت معانيها ، وبين إسفاف الكلام ، فمن الأفضل لهم والأدعى إلى

احترامهم أن يتركوا الساحة بمحض إرادتهم وإلا فسوف يجبرون ، فلا يطالبون بأكثر مما هم مؤهلون له بما أنهم ممن لا يحسنون الإدراك .

وهذا ما ينطبق في عالمنا الثالث ونحن لا نزال في بداية خطونا في مقياس الحضارة نراوح في مكاننا خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف .

فإذا نظرنا إلى ما هو ممارس بين أفراد مجتمعات هذه الدول نجدها لا تزال تتخبط فيما تريد ، ونرى انها ما إن تحصل على جزء بسيط من الحرية حتى تأخذ في الخلط ما بين المفاهيم ، فمما نراه أن البعض منا لا يميز الفرق فيما بين حرية التعبير الذي يحمل فكرا يدعو إلى التأمل ، وبين حرية القول المرسل على عواهنه لمعطيات فوضوية لا تمت إلى الأخلاق بصلة.

وكأن القول يتساوى على إطلاقه ما بذأ وسف مع ما كان يحمل رأيا وفكرا .

وقد رأينا بصورة مباشرة ذلك الخلط من البعض عندما أقام الدنيا ولم يقعدها ، حينما مجت كتاباته الإباحية التي لا تحمل فكرا ، وإنما من مجرد قول داعر بدعوى أن ذلك يدخل من ضمن حرية التعبير.

وبما أن الحال هكذا ، إذن فليس لهم الحق بالمطالبة بأن يعبروا عن رأيهم بالطريقة التي يرتئونها فأخطار

مثل أولئك على المجتمعات لا تقل عن الأخطار المادية التي تسبب الأذى كالقتل أو الجرح أو غير ذلك من الآلام .

أجل ، عليهم ترك الساحة لمن يحسن التفكير ، وذلك خير من ملئها بغث ما تطرحه نفوسهم المريضة ، وإلا فلن يعولوا على مقولة علق كل شيء على شماعة الحرية .

فهذه النظرة غير الواعية هي التي تخرب المجتمعات ولا ترتقي بها .

وبما أن هؤلاء تدفعهم إلى ذلك رغبة الشهرة الزائفة ، وبما أنهم غير قادرين على جلبها بدواعي الاحترام.

فإن من حق المجتمع طلب الحماية منهم ، ولذا فإن القيد على الحرية حفاظا على القيم يعتبر داعما للأخلاق وليس عبئا على من يريد الالتزام بالقوانين العامة ، وبما أن فك ذلك القيد يتطلب الوعي بمضار الحرية ، وبما أننا بعيدون عن ذلك الوعي في الوقت الحاضر على الأقل ، فإن ذلك القيد على حرية التعبير لا يعد اعتداء على الحريات.

هذا ما يتعين عليك سماعه عند أول مطالبة بالحرية الفكرية المعبرة.

بل ربما عندما يستمع إلى هذا القول يصار إلى الظن ، إننا لا نريد سوى تلك الأمور التي تكون على مثل ذلك النشوز .

وهكذا إن لم تصدمك حجج واضحة البطلان ، يصدمك الحق الذي يراد به الباطل.

ولكن على الرغم من ذلك فإننا لا ننكر أن ثمة حجة قوية ، يمكن التذرع بها لما يداخلها من شبهة الصدق والحقيقة ، بيد أن ثمة خطأ في التطبيق .

إذ إن المفكر المتمعن لا يمكن أن تخطئه الرؤية الواضحة في قصور هذا الرأي وخطله ، فأقل ما يمكن ان يُرد عليهم في هذا الصدد ، أنه في المجتمعات النامية بصورة خاصة ، وحتى في أي مجتمع يدّعي التحضر لم يسبق أن مارس ناسه حرية تعبيرية مطلقة بلا حدود ، فالإنسان بطبيعة وضعه الفكري قيّم على نفسه وابن مجتمعه ، يخشى النقد على طروحات يمجها الذوق العام ، ولا يمكن له أن يرتكب مثل هذا الخطأ المسيت حتى لو شرعت له الأبواب على مصراعيها ، ومع هذا فإننا لا ننكر وجود مثل ذلك الإنسان السيئ الطوية الذي يمكنه بكل مقدرة ممارسة الفعل المطلق السوء ولكن في كل الأحوال ، يكون ذلك في السر ، لا يعلن ما في دخيلته من قذارة حتى لو دعوته إلى ذلك دعوة صريحة ، إلا إذا كان على درجة

من العته لا يرجى منها إصلاح ، إذن ، ففي أي من الحالتين لن تمنعه الضغوط من ممارسة أفعاله سواء في السر العقلاني أو العلانية المتهورة .

وسواء أكانت هناك حرية أم لم تكن ، فأن أولئك المعتوهين الذين يمارسون الحرية على علاّتها ، تلك القريبة من حرية الحيوان العفوية ، معدون سلفا في أساسيات فكرهم القاصر لارتكاب الأخطاء ،

وهم فوق هذا وذاك قلة من الناس لا يعتد بها ولا يمثلون سوى أنفسهم ، وحتى لو افترضنا وجودها - وهي موجودة حقا لا فرضا مع ذلك لا يجدر بنا حرمان الكثرة العاقلة من ممارسة حقها في التعبير بسبب قلة تتصف بالغباوة والسفه .

فهذه المجموعة القليلة ليس لأثرها من الأهمية الكبرى فى المجتمعات البشرية إلى الدرجة التي تؤدي بنا إلى تقنين الحرية التعبيرية وقمع المفكرين، مما أفسح مجالا واسعا إلى نمو تلك الأوهام ، لعدم قدرة المفكرين على التصدي إلى تفنيدها ، فأدى ذلك إلى ازدهارها نتيجة لذلك الإعتام .

فكان الناتج النهائي فقدان الجانب الإيجابي من تلك الحرية .

ثم أنه في مثل هذه الحالة من حق الآخرين وهم الغالبية في أي مجتمع تسفيه كل ما من شأنه أن يثير

الشك في السعي إلى الفوضى الأخلاقية ، ومساندة ذوي الفكر على كشفهم بفكر مناهض يبرز ضحالة ما يطرحون ، حينئذ يتم الخلاص من ذلك الإسفاف الداعي إلى إفساد الأخلاق العامة ، وبيان ما فيه من سخف .

ثم كيف يكون طلب الحماية من شرورهم تلك المسهب في وصفها ، وعلى أي صورة يتخذ ؟

هل يتعين إلا تكون إلا بفرض القيود على الألسن والحرمان من مزاولة حرية التعبير أو النشر ؟.

فليقولوا ما يشاءون ، ولينشروا ما يريدون ، ولكن على ذوى الفكر رفع سيف الكلمات الداحضة لكشف ما في تلك الطروحات من رثاثة الأفكار وسخف الأقوال ، وسوف تكون لتلك المناهضة الفكرية من التأثير أكثر آلاف المرات من مصادرة المطبوعات المسفة أو كسر الأقلام غير الاضجة .

فلندع إلى تركهم وشأنهم للتعبير عما في نفوسهم بما يشاءون .

إذ إن ليس من الصواب منع أمر من الأمور ، له ما له من الدور الإيجابي ، في إثراء الحياة البشرية عامة ، والحياة المجتمعية خاصة ، كالحرية التعبيرية ، مخافة لما يجاور تطبيقها من سلبية لممارسات لقلة من الناس ،

هم بالتالي لا يمثلون سوى أنفسهم .

إذن ، فالمطالبة بحرية القول على إطلاقه هو ما يتعين أن يستتب ، سواء ما كان ممن يحمل رأيا ، أو ممن لا يحمل سوى تراكيب جمله الهابطة المعنى والمضمون ، وذلك كي لا يحدث تداخلات تحدث لبسا في الأذهان ، ينشأ من جرائه تقييد التعبير والحجر على الراي .

وذلك لأن الأفكار والآراء تحمل قيما نسبية قابلة للتغير والتبدل في اية لحظة ، فما يرضيك ربما لا يرضيني ، وان ما يبدو لنا غريبا ، قد يبدو لغيرنا في غاية الطبيعية ، وما يقنع مجموعة من الناس قد يراه آخرون في غاية البعد عما يرضيهم .

ونحن في الوقع المعاش نمارس كثرة من هذا التفاوت النسبي في الأفكار و العادات .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذا الجفاء الذي يخالط الزبد ، والذي يبدو أن لا فكاك منه في الوقت الحاضر ، مما يعكر صفو ونقاء الأفكار ، علينا تحملها إلى أن يحدث النقاء التام في مسيرة الفكر البشري ،

الذي قد لا نعيشه نحن ولا من يلينا لعدة قرون ، ولكن طال الزمن أم قصر فانه آت لا محالة .

ولذلك فعلينا الا نفكر إلا في الجانب الحسن من

إطلاق الحريات على إطلاقها ، من دون تردد أو هلع من اننا قد نتعرض إلى ما هو سلبي منها ، ولو اتبعنا هذا النهج في ممارسات حياتنا العادية ، فإننا لن نخرج من منازلنا إطلاقا، فقد نفكر ان السير في الشارع مثلا يحتمل ان يعرضنا إلى الخطر ، مما يودي بحياتنا ، ولكن هل نعزف عن الخروج فعلا لمجرد التفكير في مثل هذا الاحتمال ؟

إذن فكل عمل نقوم به ، وكل فكرة تبرق في أذهاننا تخضع لنفس العامل في نظرية احتمالات الصواب والخطأ ، ومع ذلك لم ولن نتوقف عن العمل ولا عن التفكير .

وإذا عرفنا أن هذا ما هو سائد دائما في معظم مجتمعاتنا النامية ، عندما نريد أن ننتهج فكرا أو عملا ، فأول ما يطرأ على بالنا الجانب السلبي منه ، دون محاولة منا لتجريب الجانب الآخر ، أو نحاول التقليل من الآثار السلبية عليه ، فإنه مما يريحنا ترك كل شيء من دون تعب ، ففي الهروب السلامة .

ولذا فإننا نرى أن كل ما حاولنا الشروع في لقيام بعمل ما ، نقف عنده مترددين خوفا مما قد يجلبه من جوانب سيئة ترافقه ، فيكون الناتج النهائي فقدان الجانب الإيجابي في كل أعمالنا ، مما يجعلنا خلف الركب دائما في عملية التطور .

ولكن كل قول في هذا الصدد لن يجدي نفعا فقد وجد المبرر لفرض الحراسة على حرية التعبير، وهكذا من دون أن نعي ما يراد بنا، تم رسم مسار جديد للفكر حادا من انطلاقته بأي اتجاه أخر، غير ما يراد له السير فيه، فقد كممت أفواه المثقفين وكسرت أقلامهم فأوصد باب التعبير للحيلولة دون الإفصاح عما يجول داخل عقولهم من أفكار حتى ولو نبسة من شفة.

ويبدو أنه لا جدوى من أية ملامة، فالكل منهم أما منحاز إلى جانب من تلك الجوانب الثلاثة - مفهوم المجتمع المرسوم وفق اعتبارات مقننة لخدمة مفهومي السياسة والدين و مغيب بمعطيات تجعله لا ينظر إلى الأفكار الأخرى إلا من خرم الإبرة، وحينذاك لا يرى إلا ما يُراد له أن يراه .

وبعدئذ حينما تبحث عن الحرية . ستجدها ترسف في سلاسل من قيودها.

ويكفي أننا وما زلنا نرى العديد من المفارقات المضحكة المبكية في الكثير من الأعراف وما سن لها من تشريعات تخدم الحريات، تتناقض مع الواقع التطبيقي لها عندما تتماس مع الهامش الضيق للحرية المتاحة .

فمن ذلك المنظور السابق، نرى التناقض فيما تأتي به الأعراف من تشريعات وبين ما يطبق على الواقع الفعلي.

وأيضا من أهم ما يلاحظ من ذلك الأمر الذي قد بات في وعي البشر، كعرف عام، منذ أن عرف الإنسان كيف يؤرخ لنفسه، ثم أصبح قانونا مشرعا من واقع طبيعي، ذلك القانون الذي يقرّ برشد الإنسان، عندما يصل إلى مرحلة من العمر تقدر بما فوق العشرين بقليل، أي بمعنى أن الإنسان يكون مؤهلا، لرفع الحجر عن عقلة، مادام قد بات في مقدوره تحمل المسئولية كاملة عن كل ما يأتيه من قول أو فعل عندما يبلغ سن الرشد.

بيد أنه من المؤسي حقا أن واقع الحال ينبئنا بعكس ذلك تماما، إذ ليس ثمة من يعترف بذلك الرشد، حتى وإن بلغ الإنسان مائة عام وليس الواحد والعشرين فحسب، فالكثير من دولنا ترزح تحت نير الوصاية الفكرية على ناسها، و لو كان في المستطاع، لفرضتها عليهم وهي داخل نفوسهم، وليس على ما تنطق به ألسنتهم، أو ما يخطه يراعهم.

وبما أنه من طبيعة الأمور، أنه إذا كان عليك عبء مسئولية أمر ما، فإنه في المقابل، لك الحق في ممارسة ما بدا لك تجاه هذا الأمر، بناء على ما لك من قدرة على تحمل عبء تلك المسئولية، وبطبيعة الحال، في حدود عدم الإضرار بالآخرين والالتزام بمفهوم الحرية الحقة التي يتعين عليك التقيد بها،

بوعيك التام وبمحض إرادتك ، ومن واقع الأعراف التي تخدم مصلحتك المتوافقة مع مصلحة المجموع .

وليس كما نرى من واقع منظورنا الحالي كعالم ثالث يحدث غير ما هو متوافق من ذلك الأمر ، أي إرغامك على السكوت في الحق والباطل ، كما ترى وترغب مشيئة غير مشيئتك .

ولذا فإنه إذا أردنا إقامة ميزان يحفظ التعادل الفكري لإنسان هذا العالم ، في مستوى منسوبة الطبيعي الذي يدعو إليه تدرج الحضارة الذي وهبتها الطبيعة له ، فلا يخرج عن مساره مرتدا .

يحتم علينا أن نبذل المساعدة على تنامي وعيه لخدمة وجوده الفردي والنوعي.

وهذا لن يحدث ، إلا إذا وهبت له حرية التعبير الفكري المطلقة ، وأعطيت له الفرصة لشرح الأسباب لبيان الأفكار التي تساعد على بلورة وعيه .

ولكن كيف يتم ذلك والمصالح الكأداء تقف له بالمرصاد ، وبما أن الأمر كذلك ، لابد إذن من تقديم تنازلات .

ومن هذا المنظور يتعين علينا أن نتنازل عن الكثير من الأشياء ، أن نتنازل عن تداول السلطة ، ونتنازل عن الفكر الفاعل ، وعن ، وعن ، ولا نطالب إلا بالحرية

التعبيرية وحدها ، ولسان حالنا يقول المثل (إذا أردت ان تطاع فأطلب ما هو مستطاع) .

ولكيلا نخرج عما هو مرسوم لنا من الطاعة ، فأننا ندعو إلى تقنين الفعل بل نساعد على الرضا بذلك التقنين حتى لا يغضب من يريد أن يستبد بالأمر.

إذن ، ماذا لو اخذ بهذا الاقتراح ، فعقد اتفاقا أو سُن قانونا إلزاميا بين سلطات العالم الثالث وشعوبها بأن تكون الإدارة متعلقة بالسلطة وحدها ، سواء كانت منتخبة صوريا ، أو صورة مفروضة على واقع يرفض التبديل ، وأن من يتجاوز أو يناهض بغير الحديث عابرا إلى الفعل يجوز عليه التعزير .

اجل ، لا بأس من مراعاة تقنين الفعل كما يحب القائمون على شأن الناس ، بحسب الدواعي الأمنية التي يريدونها ، كيلا تنقلب المجتمعات إلى فوضى كما يدعون ، مادام أن العقل في المجتمعات النامية مازال قاصرا عن امتلاك وعيه الكامل وانه لا يستطيع هضم الحرية الكاملة من زاوية ما يرونه فيه ، ولذا لا يجوز لذلك العقل تحديد خياراته السياسية ، وما يتعلق بها من أمور الاقتصاد والتعليم واعتناق الديانات الأخرى أو الكفر بها جميعا ، وكل ما تعلق بالحركة الفعلية لمثل هذه الشئون أو ما يشابهها.

وهذا بمعنى آخر ، أخضع لقانون الفعل الملتزم لما

تريده المصلحة الخاصة المتسلطة من الجماعة لكي توهب لك حرية التعبير المطلقة .

ويما أن الأمر مقضي عليه بالخروج من أيدينا شئنا أم أبينا ، إذن ليس لنا من بد سوى أن نقدم اقصى حدود التنازل في كل الأمور التي تدعو إلى تقبل تقييد الفعل ، مقابل الحصول على حرية التعبير.

و بما أننا مرغمون على مراعاة أفعال تطبيقية لجهة ذات مصالح بحتة هي لذوي الشأن ، ويما أن الأمر يقتضي ذلك قسرا عنك فاقبله طوعا ، شريطة إطلاق الفكر على إطلاقه ، أي بمعنى أن يسمح لك أن تعلن كل ما يعن لك وما يخالجك من أفكار ، وانتقد كل ما لا يرضيك من أعمال وأقوال ، ولكن لا تفعل إلا ما تريده الجماعة.

والجماعة هم أولو الشأن في السياسة ، أو الداعون إلى انضباط الأخلاق العامة من المصلحين الاجتماعيين ، أو كل من له القدرة على إيقاف الفكر العلني للناس حينما يريدون وساعة يشاءون .

ولكن ماذا بعد ؟ ماذا سنحصل عليه في المقابل بعد أن نسلم بأن تكون الإرادة التطبيقية متعلقة بالسلطة ، وليست مناطة بفرصة ديمقراطية لمطلقي تلك الأفكار إلى العلانية من عامة الناس ؟

اليس من المفترض بعد ذلك الحق الذي تنازلت عنه في تقرير مصيرك وجعلته بيد ذوي الشأن ، اي من ذلك الحق الذي سلم لهم بالرضا ، اليس عليهم في المقابل أن يسمحوا لك بالتفكير العلني ، أي إبداء الرأي الذي قد يكون للدراسة والتحليل ، أو حتى للتنفيس عما يضايق الناس ، أو لاكتشاف من اين تأتي الأخطاء .

فيقول الناس ما يرونه صحيحا في اي جانب من الجوانب المختلفة للحياة ، يقولون ما يرضى عنه أو ما لا يرضى ، بحرية نابعة من الصميم معارضة أو مؤيدة، تدعو إلى الالتزام أو الفوضى من المنظور الخاص لمن يخالف في الرأي ، فإن لم يُستسغ فليس ثمة سوى الرد عليه بما يفنده بحرية مقابلة ومماثلة من دون قيد أو شرط ، ومن المؤكد أنه لن يثبت ويستمر سوى جيد الأفكار.

ومن ذلك نتوصل إلى أنه في حالة تقنين الفعل ، نرى أنه لا وجود لخطر حقيقي يمنع من إطلاق الأفكار على إطلاقها .

وبما أن الأفكار وحدها إن لم يصاحبها عمل مناهض، ينتفي عنها التسبب في وقوع الضرر ، إذا بقيت في مجال وحيز القول وحده ، وأن كانت تدعو إلى الفوضى في شتى مجالات الفكر الإنساني ، ما لم

يصاحبها تطبيق عملي لتلك الفوضى يخرج بها إلى واقع التنفيذ فهي لن توقع ما يخشى منه مطلقا ، وعندئذ ينتفي مبرر الحجر عليها من أي كان ، أي من المفترض أن تعبر الشخصية عن رأيها بمسئوليتها وحدها لا غير .

والمسئولية وحدها هذه ، لا تعني أن ينزل بتلك الشخصية العقاب ، من ذلك الذي يكون قادرا على إنزاله بها ، وإنما تعني أن عليها تحمل مسئولية ما قد تتعرض له من معارضة لفكرها بالقول تسفيها مستخفا أو تأييدا مساندا ، أي على الشخصية تحمل ردود الفعل العكسية الناجمة عن تلك الحرية الممنوحة لها ، التي قد تكون ردودا مناقضة ومناهضة لما طرقته من أفكار، ولا يتعدى ذلك إلى الإيذاء البدني من أي نوع أو مصادرة الرأي أو الحجر عليه .

حينئذ دون ريب سنرى من تصارع طروحات الأفكار المختلفة رؤية موضوعية لمختلف شئون الحياة ، تجعلنا نتقبل ما نحن فيه من أمور والوقع الذي لا محيص لنا عنه ، تقبلا موضوعيا لا نأمل من ورائه تحقيق المعجزات الخرافية .

فالحرية التعبيرية المطلقة إن وجدت ، لابد أن تحدث تلك التصادمات الفكرية وتقدح زنادها مولدة شررا لأفكار أخرى تلو بعضها ، من جراء هذا التصارع

الفكري الذي قد يأتي تلقائيا من المفكرين الملهمين ، ثم ما تؤدي إليه تلك الأفكار التي ربما تكون أكثر إضاءة من كل ما مضى ، والتي لابد أن تكون متخالفة في المعظم منها ، مما ينحو إلى أن يتصادم بعضها مع البعض الآخر مرة أخرى ، وتؤدي إلى استدعاء وابتداع افكار جديدة قد تزهر بها البشرية وتزهو ، فتحدث الغربلة المتماشية ، ورغبة الحياة في التقدم الذي سيأتي بالمزيد من الأفكار والعادات التي ستكون أكثر فائدة وفعالية ، لكي تتجه بدورها إلى تصادم جديد ، كل منها يحاول أن يفند الأخرى ، فتتولد معطيات لم تر النور قبلا .

وحتما لو زاولنا أفكارنا بعلانية صريحة فذلك سوف يضئ لنا نقاط الإعتام في مسيرتنا الحياتية

فيبقى من الأفكار ما يستحق البقاء ، ويفنى منها ما هو جدير بالفناء .

ولا غرابة في ذلك ، فهذه هي إحدى عمليات الانتخاب الطبيعي في الحلقة البشرية الزاحفة نحو التسامي ، والتي تنشد الاستقامة في كل شئون الحياة، لولا ما يعترضها من معوقات تأتي من قطاع بشري لم يكتمل نضجه العقلي بعد ، مسببا لنا ذلك الاحتباس الفكري الذي يعطل فعالياتنا ، فيؤدي بنا

ذلك إلى حرماننا من تلك الفائدة ، التي عن طريقها يتكون الأمر الصالح لما يخدم الحياة السوية .

إن الأفكار الجيدة ستكون المنتخبة من الحياة نفسها للديمومة والبقاء .

وهذا بطبيعة الحال لن يحدث إلا في وجود جو خال من الوهم والخرافة ومن محاولة تجهيل البشر ، وبطبيعة الحال أيضا فإن ذلك لن يكلف كبيرا عنا سوى إطلاق الحرية المطلقة ممارسة في التعبير على الأقل .

إذن ما الذي يمنع من أن تكون لنا تلك النظرة الذهنية الواعية ، التي ترى أن الحديث هو الحديث ، وبالتالي فإنه لن يشكل ضغطا فعليا مهما بلغت فاعليته من السوء أن لم تصاحبه أفعال واقعة.

وفي عالمنا الثالث ليس ثمة إمكانية بديلة ، إذن فنحن لا نطالب سوى بحرية إعلان الأفكار وحدها ، وهي على أية حال لن تعرض حياة الناس إلى الخطر . ما دامت لم ولن تخرج عن دائرة الأقوال إلى الأفعال ، سواء كانت ضارة أو مفيدة ، وهي بالقطع لن تخرج عن هذا الاحتمال ، من وجهتي نظر متعارضتين .

و بما أن الحال هذه ، إذن علينا التواضع في مطلبنا مبتعدين بقدر إمكاننا عن حرية الفعل ، ولن نزيد في مطلبنا عن حرية الرأي ، بالتعبير العلني ولكن لن نتنازل عن هذا المطلب إطلاقا.

وقد يقال ، إنه لا فائدة ترجي من قول لا يصحبه فعل مادام القول وحده المباح ، فإذا كان الأمر قصرا على الكلام فلا فائدة إن لم نتعداه إلى الفعل الذي وحده يحسن واقعا ملموسا .

ولكنّا نقول هنا وبصورة مؤكدة ، إنه لو أعطيت حرية الفكر العلني بمفردها فلا بد أن يكون لها تأثير محسن على الأفعال يكون متزامنا مع استمرارية طرح الأفكار ومزاولتها علنا ، من دون ريبة أو خوف من عقاب ، وحينئذ سوف يحدث وضوح في الرؤية.

ومن ثم لابد أن تكون تلك الحرية الفكرية المعلنة هي القائد إلى الإصلاح ، فيما يلي ذلك من أيام ، بما تشعه من أنوار تعشي ظلمات الضلالة والجهل .

فمن البداهة أن الحرية الفكرية تقود إلى النضج الفاعل للعمل .

ويكفي أن نلقي بالنظر إلى تلك المجتمعات ، التي سمحت بحرية التعبير الكاملة ، تلك التي قطعت شأوا لا بأس به في مضمار التقدم الحضاري كما في مفهومنا الآن.

لنرى ما حصلت عليه من سرعة في النمو ، نحو الرقي في الأفعال وأن لم يكن قريبا من المطلق كما في

مفهوم الرقي الحق ، ولكن تكفي المقارنة بما هو مطبق بين أفراد مجتمعها من ممارسات مسئولة عما تريد ، وبين ما نطالب به نحن كحد أدنى من تلك الممارسات .

ولكن أين الحرية الفكرية التعبيرية التي تجعلنا نزاول طرائق من التفكير ربما لم نجرؤ يوما على مناقشتها حتى مع أنفسنا ، فحرماننا منها افقدنا زخم الأفكار المعرفية المتصاعدة ، ومن ثم لم نستطع فهم الواقع الذي نعيشه.

ثم أنه ، حتى لو قدمتَ ذلك التنازل إلى الحدود الدنيا مما تريد من الحرية وبالشروط الذي وضعتها على نفسك قد تجابه بسد لا يكسر .

فأي مصلحة عليك العناية بها ؟ وما هو حد الإضرار بالآخرين الذي عليك تجنبه ؟ وأي حياء أخلاقي عليك الا تخدشه ؟ فربما يقودك ما تريده وما يراد منك إلى القيام مجبرا على الرقص الفكري لمصلحة ما ، وضدها أو ما يناقضها في آن واحد .

فأمور حياتنا مازالت ترسم لنا كعوالم نامية من قبل دول تعدت طور النمو وبلغت سن الرشد ، وبالتالي فان مفاهيمنا الفكرية يتعين عليها أن تحظى برضاهم أولا ، مادام زمام أمورنا لا يزال في قبضتهم ، وتطبيق ما نقترحه قد لا يتوافق مع ذلك الرضى .

وهذا قد يكون في أحيان كثيرة يتعارض ودواعي مصالحهم ، ولذا علينا الا نخرج عما يحاصرنا من أطر خطت بأحكام نجبر على القيام بتنفيذها لمصلحة سادة لنا من قومنا لا نستطيع الخروج عن طوعهم ، وهم ايضا يقومون بتنفيذها لمصلحة من يتسيدهم وهكذا ندور في دائرة لا ينفذ منها .

إذن لا سبيل إلى إنقاذنا إلا بمعجزة ، على الرغم من ان العصر لم يعد يصدق المعجزات ، اجل ، هذا ما تحتاجه الدول النامية لكي تنال حريتها، وأيضا هذا ما تحتاجه الدول المتحضرة لكي تنال المزيد من التحضر لكي تكف عن استغلال غيرها ، فجميعها على حد سواء لم تكتمل سويتها الفكرية بعد .

إذ لا أمل لها بالتخلص من إعاقتنا إلا من باب واحد نرجو الا يكون شديد الإيصاد وهو لا يعدو ممارسة الديمقراطية الدولية أن صح التعبير ، أي بين بعض الدول وبعضها الآخر ، خصوصا بعد الاتجاه إلى العولمة التي فرضتها سرعة الاتصالات وسهولتها ، وهذا مناط بتبادلها ومن يتولى إدارة شأنها الحياتي ذلك المتعلق بالاعتراف بحق الدول الأخرى عليها مثلما تفرض عليهم من حقوق لها ، أي مساواة كاملة في كل شئون الحياة التي تجلب الفائدة إلى الحياة البشرية عامة .

هذا الخطاب موجه إلى تلك المجتمعات المتحضرة القادرة على تسخير غيرها من الدول النامية او المتخلفة لخدمة مصالحها فحسب.

إذن فعملية الإنقاذ ، لابد لها من ممارسة ديمقراطية عالمية للدول بشموليتها بين بعضها والبعض الآخر وليس بين أفراد دولة داخل حدودها كما هو حادث الآن .

ولكن ربما ذلك لن يحدث من تلك الدول المتحضرة ، إلا بعد أن تحصل على رقي أكثر ، ومن ثم يتضح لها بصورة جلية مفهوم الرقي الحقيقي للإنسان ، ذلك الذي لا يعني التقدم التكنولوجي في تسخير الآلة ، ثم ما ينتجه الرخاء المادي من عيش مرفه فحسب ، بل هو تطور حقيقي في البنية الأساسية في عقلية الإنسان ، إلى أن يصل به إلى شفافية مطلقة الإدراك .

فترى ما يجب عليها من أخذ مصالح الآخرين بعين الاعتبار ، قبل أن تأخذ بأي تغيير يحسن واقع لها بما يمس سلبا واقع غيرها من البشر .

ولكن هل بالإمكان تطبيق هذا المبدأ ؟ متى ؟ وكيف؟

وهذا فيما يبدو غير وارد في منظور الحاضر وليس ثمة امل بأنه سيكون في منظور المستقبل القريب ، اما كيف ؟ فهي ليست عسيرة على التطبيق عندما يأتي

الوقت ، ولكن المهم أن يأتي ، فهو بعيد جدا كما يبديه من واقع الحال .

إذن هو بعيد الاحتمال ويدخل في باب الأمنيات .

ولذا فإن الأمر يبدو أكثر تدهورا .

إذ أن الانعتاق مما نحن فيه لن يتأتى لنا إلا منا ، حينما نقوم بإطلاق حرية التعبير المكبلة وفك قيدها بكل تشعباتها الفكرية والمجتمعية والسياسية والدينية ، فتكبيلها هو من أكبر مسببات تبعيتنا لغيرنا التي لا تنمو مصالحهم إلا في حال أعاقتنا في كل المناحي التي مرت تسميتها والتي من جرائها سوف نعيش أبدا مشلولي الفكر في الغالبية الكبرى منا .

ولابد لنا من أن نعلم أن حرية التعبير هي البداية للخلاص ، وانكسار ذلك القيد هو ما يعوزنا ونحتاج إليه لكي ننطلق في تشخيص دائنا ووصف دوائنا .

و اظن انه يكفي ما كابدنا من الأمرين من جراء ما مرّ بنا من أساليب قامعة للفكر المعبر.

إذن من ذلك نخلص إلى أن التشجيع هو لحرية التعبير الفكري المطلق ، فهو خالق مبدع مهما بدا من شطط الأفكار المفسح لها ، وأن حدث ما يخالط طروحاته من جفاء فعلينا الا نلقي بالا إليها.

وندعو إلى أن كل الأفكار مباحة للتعبير ، ونعني

بذلك أنه مفسح لرجل الدين أن يعض ، ومفسح للعلماء والعلمانيين أن يبدو ما هم عليه من فكر دون خوف أو خشية ، ومفسح للمهتم بالشأن العام أن يبدي ما يحمله من نقد ومناهضة فكرية لطروحات سياسية أو دينية او عرفية عفا عليها الزمن وتجاوزها التاريخ ، يراها من وجهة نظره مغلوطة في توجهاتها أو جامدة لا تحقق مطامحه في حياة متحركة ، اي مفسح لكل من أجتهد في مجاله ، بغض النظر عن ذلك المجال إن كان يرضينا أو لا يرضينا .

ولكن هل يدعنا ضغط أصحاب المصالح المتعارضة مع نهج الصالح العام ، نسير إلى ما نريد في خط مستقيم دون عوائق يعرقلون بها الوصول إلى الهدف ؟ فلنر.

المصالح المتشابكة :

والآن يأتي دور الحديث عن سبب كل أسباب ما نحن فيه من الإعاقة ، وذلك السبب متمثلا في المصالح وأربابها.

بيد أن الحديث عن المصالح متشعب وذو شجون ، يبين لنا في إحدى منحنياته أنه لطالما أخضعت العقول بأشرس الوسائل إلى ما يروج من الأوهام التي تتمشى مع أهداف أصحاب المصالح لكي يستتب الأمر لهم .

وعلى الرغم من أن الأوهام من طبيعة المجتمعات الأولية ، لذا فإن من نافلة القول أنها سابقة على ظهور المصالح ، أي أن هذه المصالح ليست سببا أوليا في نشوء تلك الأوهام ،

وكان من السهولة بمكان إزاحة تلك الخزعبلات بعد تيقظ وعي الإنسان من جراء انتشار العلم والمعرفة ، وأن يتم ذلك بكل يسر نتيجة لعمليات التطور المتلاحقة التي تعاقبت على البشرية ، غير أنها منذ بدء ظهور تشابك هذه المصالح وتعقد منحنياتها غدت المستفيد الأوحد منها .

وبما أنّ تعارض هذا الأمر مع مصلحة ذوي المصالح

الخاصة لذا قاوموا عمليات الإصلاح باستخدام نفس أساليب اليقظة للعقول المتطورة ،

ولكن باتجاه معاكس لمساراتها ، وكأنهم يستعملون أدوات تشييد العقل لا للارتفاع به ، وإنما لردم معالم رقيه فيخضعون قواهم الفكرية الخاصة التي قد تكون نافذة مقتدرة لطمس الفكر الجمعي بما يتواءم مع اتجاهاتهم المصلحية فحسب ، فيبدو الأمر لذلك العقل وكأنه مسير بمحض إرادته ، مما يسهل الأمر على من أراد تغليف الذهن العام بذلك الإعتام من تلك الأمور الوهمية التي يصعّب على ذلك العقل تخطي حواجزها مع وجود تلك المحرمات التي من العسير تجاوزها لأبدأ أي فكر مخالف يمكن أن يطرح ، ليتم بمقتضاه مناقشة اي معطى أخر في الحياة المعاشة ، او أبدأ الرأي بحرية تامة خارج إطار ما فرض عليه من فكر ، دون أن تسلط عليه تهمة الإلحاد والكفر ، فتقام عليه الحدود ، وفي أهون السبيلين تقام عليه القضايا. وكأنهم بذلك أوصياء على ما يداخل عقول الناس من أفكار يدل عليها ما تنطق به السنتهم او اقلامهم فيدفعون بهم إلى التأديب جزاء لمخالفتهم أحكام تلك الوصاية.

كل ذلك خوفا من حصول تصادمات عقلية تفتح

أعين المحتشدين عما وراء ذلك الإطار من الأهداف السياسية والمصالح المتشابكة معها

فكان من نتيجة ذلك أن تمت قولبة الذهن الجمعي وصب في إطر صلدة عصية على الكسر وقد دعمت بذرائع وحجج واهية لمنطلقات فكرية متسربلة بالأوهام، لا يؤازرها أي منطق يمكن للعقل أن يعتد به لو كان حرا من الضغوط التي تمارس عليه .

ومن ثم خرجت الأمور عن إطارها الحقيقي ، و بات كل من له مصلحة وصاحب سلطة فيها ، يخضع الحرية إلى قيد شديد التكبيل من أجل موضوعية وجهة نظره الخاصة ، وليس إلى موضوعية المفهوم المشترك الذي يخدم المجموع ، والبعيد عن الخضوع إلى المصالح المتوافقة معه كصاحب مصلحه .

وقد عملوا وما زالوا يعملون دون أدنى شعور ولو بذرة واحدة من رادع أخلاقي يردعهم عن تخريب العقل البشري.

إذن ، في هذا الباب نبدأ بمصلحة الفرد السلطوي ثم الدولة المتسلطة وننتهي فيما بينهما من الجماعات والأحزاب ، إذ إن المصالح سواء ما كان لا ضرر منها أو ما كان يهدف إلى إيذاء الآخرين وسلب مقدراتهم المادية أو الفكرية لا تزدهر بالنماء في عوالمنا الثالثة إلا بوجود التسلط لمقاومة و عرقلة اي جهد قد يقوم

بمواجهتها كما اعتدنا أن نراه ، ولكن قد لا يكون التسلط ظاهرا للعيان يمكن كشفه ومناهضته بسهولة.

فقد تختفي المصلحة تحت الرداء الدقمسي للمبادئ النبيلة على الرغم من تشابك خيوط بطانته بأكثر الأطراف قذارة ! تلك الأطراف التي لا يتوقف صراع شرورها الشرسة لبعضها تجاه البعض الآخر أن كانت هنالك مصلحة مختلف عليها ، ولا يجمع بعضها إلى بعضها الآخر بحميمة الأحبة سوى الفائدة المشتركة ، وعندئذ الويل لقطاع بشري عندما تتضافر الجهود ضده لخدمة الشأن الذي يريده ذلك الفرد إذا كان ذا سلطة أو تلك الدولة المهيمنة على العالم ، أو الجماعات المتسلطة والذي ربما يدعوهم أمر من الأمور المصلحية إلى فرض تيار فكري معين على ذلك القطاع البشري المستهدف ، فحين ذاك يتخذ على التعيين وسائل تسهل فرض ذلك التيار ، وذلك إما باستعمال الإقناع لذلك العقل الجمعي لتبرير الواقع كما يراه صاحب التسلط ، وبيان أن ما يجري لذلك القطاع من إخضاع لا يعدو الحق ، وأن منطق الأمور يتطلب ذلك ، فتفرض تبعا لذلك التشريعات كثوابت مقدسة وتسن القوانين التي تخدم الأهداف ، و تعزز بما يقام لها من المنابر التي ينبح فوقها من يعتليها من الأعوان لبث الفكر المسموم الذي لا يعدو التسبيح

والثناء على صاحب العزة إذا كان فردا ، أما إذا كان التسلط لدول أو جماعات فحدث ولا حرج إذ تنشر ثقافة التسطيح التي تدور حولها النقاشات لقشور الأمور دون لبابها ، ثم دس ما يراد دسه من الأوهام مما يراد لأولئك الضحايا اعتناقه من تلك الثقافة المهلهلة ، وتبرأ الأقلام المأجورة لكي تسود الصفحات في تبرير ما يطرح من أفكار على أسانيد مشكوك فيها تنسب من دون وجه حق إلى مصادر تعوزها البراهين إلا ما يقوله دعاتها .

ومن أجل كل ما مضى ، أي من أجل الحصول على ما يريدون جعلوا ذلك التداخل الغريب الرابط بين ما تتطلبه الحياة الاعتيادية من الأمور الواضحة ، وبين ما غمض من الأمور السياسية أو العقائدية بما لم يعد في ميسور القدرة الذهنية العادية الملقى على عاتقها ذلك الزخم من الأوهام تبين الحقيقة المحضة ، أو تبين الهدف من المسعى ، لعدم استطاعتها فك ذلك التشابك العويص بين الموضوعات التي أجيد صنع التباسها بمهارة شيطانية إن صح هذا التعبير خصوصا للمتابع غير المحصن .

ولفرض مبتغاهم غالبا ما يكون بتآزر من التلويح المبطن بالعقاب لمن لا ينصاع ، أو رفع عصا التهديد الصريحة وعسف الحرية للّيّ عنق الحقيقة وإسدال

ستار من الظلام يغلف ما يتضح من الأمور في غالب الأحيان وإن كان ما يقام به ظاهر البطلان ظهور الشمس في رائعة النهار .

ثم جاء الأمر الأكثر نكاية من ذلك حين باتت الدعوة إلى ما يرونه من فكر يخدم أهدافهم واضحة القسرية، فان لم تعتنق افكارهم وتدع إلى تبني أهدافهم ، وأن لم تبدي ما يشي بمعارضه لهم ، وإلا فالجماهير المسيرة معدة لتعزيرك بصياح كصياح مطاردي الكلاب المسعورة، وأعتاب المحاكم ممهدة لوطئك ، لسهولة ما يدفع بك إليها وأبواب المعتقلات مفتوحة لك على مصراعيها ترحب بك .

فهل لك بعد ذلك جراءة على النبس ؟

وهل بعد ذلك الإرهاب الفكري ، أو حتى البدني ، لإخضاع العقل بالقوة الجبرية ، إذا لزم الأمر ، هل بعد ذلك بعدٌ أخر ؟

لا نظن .

والنتيجة بعد ذلك هي رضوخك القسري كواحد من عامة الناس عليك القبول بتجرع الكثير من الأوهام كقضايا مسلم بها ، وقد أصبحت غير قابلة للنقاش وإعمال العقل ، فالفكر جاهز ومعلب ومعد للالتهام ،

والمنع باتا لإدخال أي فكر مخالف على الساحة الثقافية بما لا يتلاءم مع أهداف أرباب المصالح .

المهم أن يستتب الأمر لمعطيات ذلك التوجه المطلوب أكبر عدد من الناس ، بحيث يصبح قطاع المفكرين الحقيقيين في موقف الناشز عن الإجماع .

ولذلك لم تعجز تلك القوى التسلطية عن مقاومة هذا القطاع أيضا ، ليس عن طريق ممارسة الإرهاب الفكري عليها ، كما تفعل مع العامة من الناس ، إذ أن تلك القوى أعجز من أن تؤثر في تلك العقول النيرة ، لما لها من المقدرة على التحليل والفرز لما هو منطقي وحقيقي من الأفكار ، ولما هو وهم من الأوهام . وإنما عن طريق العمل على تحجيم دور أصحاب تلك العقول وتقليص نشاطاتهم بوسائل اخرى كإرهاب من يستمع إلى تلك القلة المفكرة ، أو استعداء الجماهير لها بقسر العامة على الاستماع إلى الفكر المضاد المعاكس لفكر تلك القلة مستعملين لذلك وسائل عدة إما باستخدامهم الدائب لنشر الوهم والخرافة للإخافة والتثبيط عن السعي لمعرفة الحقيقة ، وإذا كانت تلك الوسيلتان عديمتي الجدوى وغالبا ما تكون كذلك على من يمتلك عقلا نيرا والمعية فكرية ، بيد أنها مجموعة لا تمتلك الكثير من التأثير لوجود تلك الأغلال التي تحد من انطلاقتها في أي إتجاه ، عندما يُلجأ إلى

الإخضاع الجبري ، باستعمال التصفية الجسدية لذوي العقول المفكرة إذا لزم الأمر ، وما عملية الاغتيالات وإباحة الدماء في كل مكان لأصحاب الفكر المخالف لتلك الطروحات المتخلفة ببعيدة العهد عنا .

ثمّ إن أولئك الأصوليين حينما يناصرون أية فئة من الجماهير تتعامل بالدجل والتضليل لا يفعلون ذلك بنية سليمة نتيجة لما يلقى في روعهم ، ولا مدفوعين بدواعي حب الخير لأولئك الناس بناء على معتقدات يحسنون الظن بها ، وحينما يقهرون فئة أخرى تحاول الدعوة إلى العقلانية ، هم أيضا لا يفعلون ذلك لأنهم لا يؤمنون بالعقل ولا يفهمون دواعيه ، وإنما لأن خدمة مصالحهم تقتضي ذاك وترفض هذا .

وحين تستغل الفئة المتسلطة تلك الأوهام تفعل ذلك بوعي تام ، وليفلق العقل والتعقل والسائرون في ركابه ، مع كل أولئك الساعين إلى الحقيقة النيرة .

وقد رأينا أن منهم من استعمل أشد الوسائل فتكا بوعي الناس وإلهائهم وذلك باعتماد نشر الخرافة بكثافة عالية.

ورأينا أيضا كيف أتخذ أصحاب المصالح تكبيل مزاولة التفكير بالعلانية المطلوبة متكا رئيس لكي يتسنى لهم أشغال العقل بالخرافة ، ومن ثم العمل على تسطيحه بإغراقه بمعطيات الأوهام .

فالأمور التي تستخدم لإخضاع العامة من الناس لقلة ممن يتكسب الفائدة لا تعد ولا تحصى ، ولكن من اهم المستخدمات في هذا المجال السعي إلى تغييب اذهان المستهدفين من البشر إما باختراع مبادئ زائفة وكاذبة تمنع القوة الغاشمة مناقشة أي جزئية فيها او دفع الناس والهائهم بمكابدة سبل العيش بما يجعلهم لا يكادون مقاومة شدة وطء مشاكله مما يمنعهم من التفكير بما يراد بهم أو لهم ، وبذلك يصبحون هدفا صالحا للتأثر بالخرافة والوهم ومن ثم عجينة سهلة التشكيل وفق المبتغى لما يرومون .

وفي هذه الحالة ليس هناك أفضل من حالة ترويج الخرافة ونشر الوهم وتكبيل الحريات لتغييب وعي شعوب بأكملها لخدمة اهدفهم .

وهكذا يسود التغييب الذهني في العقل الجمعي ، فيقوم هذا العقل المغيب بتكفل وتنفيذ المخططات لأرباب المصالح نيابة عنهم ، وذلك عن طريق القوة المسيرة له حينا او بالإقناع حينا اخر ، دون أن يدري أنه مسخر لأنه اقنع وجدانيا بصواب ما أخضع له .

لأن الغالبية العظمى من البشر مؤهلون للانقياد وراء من يلقى في روعهم سقط الأفكار ، لما يحملونه من موروث الوهم والخرافة ، لذا فإن انصياع الجماهير

يكاد يكون تاما ، وقد حنت هامتها لتلك الأمور ، التي يبدو من ظاهرها تقديسا للعقائد الدينية ، وما يخفى من باطنها ما يريده ذووا المصالح أن يسود من مفاهيم.

وهذا ما كان يفعل على مرّ حقب التاريخ منذ ان عرف قطاع من البشر طرائق من الكيد المنظم ووسائل الشرور المرتبة التي توصلهم إلى ما يبتغون من اقصر الطرق وأسهلها ،حتى بات من السهل قيادة شعوب بأكملها إلى كل ما يراد لهم التوهم به . وعندما تصير قدرة الإنسان العادي إلى العدم في الخلاص من الجهل ، تغدو الفرصة مواتية لازدهار المصالح الخاصة فلا تعود في حاجة إلى متاعب التورية الكبيرة ، فالناس اصبحوا مستعدين إلى تصديق كل ما يلقى في روعهم.

ولكن من خوف الإفاقة الجماعية في يوما ما ، والحذر من الانتباه إلى ما يراد للجماهير من تعمية عن شئونهم الملحة فقد بدا لهم أن كبت الحرية يأتي متماشيا لخدمة أغراضهم ، باعتبار أن الحرية الفكرية، هي القوى العظمى المدمرة لكل مخططاتهم السيئة في سبيل الإمساك بزمام الأمور .

فقاد ذلك الحذر إلى أن يمّد أصحاب تلك المصالح أصابعهم الملتوية يقيدون بها الحرية برفد جديد من المحرمات بين فترة وأخرى ، بما يجعل الألسنة لا تعبر

إلا بما يراد لها التعبير عنه متبعة المسار الذي تدفع إليه من دون أعمال الفكر لما يراد بها ، وقد تخلت تماما عن اية قوة تملكها لاستعمال العقل لتغيير واقع يخصها ، بعد أن اترع وجدانها بما يلقى فيه من مريض الأفكار.

وهكذا اضحى تكريس الأوهام لتجهيل الناس ونشرت الخرافة وترابط وتآزر فعالية أحدهما إلى الأخر أمرا مستتبا بما لا يمكن معه الفصل بينهما لمعرفة أيهما الأشد فتكا بوعي الناس .

فكلاهما مسخر لخدمة المصالح المتشابكة.

فبتكبيل الحرية الفكرية والحرمان من إطلاق الأفكار النيرة ، بات مما لا يعد ميسورا معه الخلاص من الخرافة ، لقد اقيم من أجل ذلك سد من الممنوعات والمحرمات أمام أي خطو للناس ولو بقدر قيد انملة بما لا يعطي مجالا لتبني فكر حر او انبثاق رأي خال مما يسوره من تلك الخزعبلات .

ولكي يحشد أكبر عدد من الأتباع المنصاعين إلى ما يراد بثه من الأوهام قام أصحاب تلك المصالح باستخدام عدد من الرؤى التي استغلت استغلالا سيئا كمفاهيم لمسائل عقائدية وقد تم ربطها ربطا محكما بالأمور السياسية كعامل مساعد كما لو كنت تخلط

عنصرين لإنتاج مادة ثالثة بوجود عامل مساعد لا ينتمي إلى أي من العنصرين الأولين ولا يدخل في تركيب الناتج المفرز ولكن كلاهما مستفيد من هذا العامل المساعد الذي يعينهم على تكميم الأفواه .

ولذا فقد تم ربط التعايش اليومي للحياة بالعقائد الدينية لخدمة السياسة المستهدف من ورائها خدمة أغراض ذلك الثنائي المتآزر ، فكان من جراء ذلك الدعوة إلى تطبيق الشريعة الدينية في أمور الحياة الاعتيادية ، والإصرار على عدم فصل الدين عن الدولة، فقد أقدم على استخدام قطاعات كبيرة من أفراد المجتمعات لعمل تنظيمات رسمية أو غير رسمية للم الصفوف نحو توجه فكري مرسوم ، إما بإغراء عقائدي ممسوخ الفكر او مادي سخي إذا اقتضى الأمر.

وكنموذج لعمليات التطويع ، فقد سمعت من بعض النساء أنه دفع لهن مبالغ مادية كبيرة لكي يغيرن من طريقة لباسهن مع ما يتواءم مع أحكام يراد لها ان تعزز توجها فكريا عقائديا يستخدم لتوجه سياسي معين .

ومن أجل ذلك فرض هذا التفاعل المرتب على الواقع ، فقد قام على حماية ذلك كم من العمليات الخفية المرتبطة باستخدام الوسائل الإرهابية مثل استعمال القوة إما بالتصفية الجسدية لأي صاحب معارضة

فكرية معلنة تتسم بالجراءة الشديدة أو الدفع بالمفكرين الجهوريين إلى جزاءات قضائية ، كل ذلك في سبيل تكميم الأفواه عن النطق بما يراد المعارضة به كفكر آخر .

بل الأنكى من ذلك فقد شرعت من بعض الأوهام اعرافا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، مثل نشر الأدعية لطرد الجان وفك السحر والاستغفار عند الشعور بالرغبة في التخلص من فضلات الجسم ، فقد كتبت الأدعية مثل كلمة (غفرانك) والصقت على أبواب المراحيض في الأماكن العامة والدوائر الحكومية ، وكأنه في هذه الحالة على الإنسان مقاومة طبيعته ، وفي الحال الأفضل الاستغفار لها وإلا فسوف يناله العقاب إن قام بها من دون ذلك ، وإذا كان ذلك ما يجب على الإنسان ، إذن لماذا خلق بهذه الخاصية .

ولأنكى من ذلك ، أو الذي يؤسف له حقا ، أن الكثير من الصحف والكثير من الكتب تتحدث بمثل هذه الخرافات والأوهام وتعدّ العديد من صفحاتها لنشر مقولات السحر وظهور الجان ، وحتى المسرحيات التي يكبر عليها النشيء وكمثال مختصر فهناك مسرحيتان تعرضان هذه الأيام هما (البيت المسحور) و (البيت المسكون) فإنهما ومن مثيلاتهما تساهم في قولبة اذهان الأطفال قبل أن تتبلور ، وقد يفعل القائمون على

أمر ذلك التخريب أما بحسن نية متأثرين بالجو العام فيما يشاع من أفكار أو بوعي تام مما يفعلون يدفعهم إلى ذلك المستفيد من تخريب العقول وإلهائها عن الالتفات إلى ما يستوجب التفكير فيه بما لا يتفق ورغبات أرباب المصالح ، وهم في ذلك مثل دودة العلق التي لا تعيش إلا على امتصاص دم الضحية وانه مما يخدم أغراضهم بأن تكون لهم غاية في أن تبقى للجماهير تفاعلات بتلك المعطيات الوهمية لتكريس البيئة بمعوقات تخلخل بنيتهم العقلية ، مما يخلق تلك الصعوبات التي تحد من الانطلاقة الفكرية الحرة للجماهير ، وحينئذ يأمنون من خشية جدل الناس معهم بما لا يملكون عليه دليلا منطقيا يفحم المعارضين لهم .

والجماهير تنصاع إلى الوهم يوما بعد يوم لقوة زخم هذا التيار الذي يعمل على سلب قوى التفكير لديها ، إذ إنها لا تجد أمامها خيارا آخر للمفاضلة بسبب تلك القيود المكبلة للحريات .

كل ذلك يفعل وما يزال يفعل كعملية غسيل للعقل الجمعي في سبيل استتباب الأمر لتلك التوجهات الفكرية وإظهارها في صورة المنطق الأقوى الذي يمكن من خلاله تحقيق معجزة الإقناع بتلك الجدلية

المنتقاة لضرب أية جدلية منطقية تعارضها دون تعب أو نصب ، إلا ما يفعل من ترويج لهذه الأوهام .

ولتعزيز ذلك فقد نبشت الأعراف التي عفا عليها الزمن من مدافنها وفصلت لبوسها تفصيلا محكما على مقاس تلك المسائل ومن ثم جُعل منها تكوين مثلثي من الخرافة والوهم وثقافة التجهيل كإطار يلمّ داخله ما يشاءون من حشد بشري يحمل من تلك الأفكار ما يخدم مصالحهم يحيط به سياج عصي وقوى من عوامل تكبيل الحرية الفكرية المعلنة لكي يُمنع أي اخترق له.

فحرم كل ما لا يصح تحريمه ، وأبيح ما لا يصح إباحته، واستعمل ذووا المصالح كل ما لديهم من قوى نافذة ، سواء كانت فكرية أو مادية لإرهاب العقل الجمعي وإخضاعه إلى الانصياع التام.

وعندئذ نجم كنتيجة لسياق مرسوم حشد الناس أجمعين ضمن ذلك الإطار المثلثي حشدا طوعيا كما في المعلن الظاهر ، ولكن الويل كل الويل لأي امرئ لا يظهر ذلك الانصياع حتى لو كان ما في دخيلته يخالف تلك التوجهات الفكرية ، وذلك خشية لما قد يتعرض له من أذى ليست له طاقة باحتماله .

وهكذا أمست القوة هي صاحبة السلطة في تعيين ما ينبغي خدمته من أفكار مسخرة كل طاقاتها التعسفية

لتحقيق ما تريد من خدمة لتلك المصالح ، مبتعدة عن مراعاة الجوانب الحقيقية التي يجب أن تقدم الخدمة من أجلها ، وهم لن يتوانوا عما هو الأفضل بالنسبة لهم لتحقيق أهدافهم وفي هذه الحالة ليس هناك افضل من تغييب العقل الجمعي ، خصوصا أن جزءا كبيرا من ذلك العقل لديه الاستعداد السريع الشبيه بالاستعداد الفطري للاستجابة للأوهام بسبب رغبته المزمنة في الخلاص مما يخيفه ويعجزه فيقلقه .

فكانت تلك الرغبة في الخضوع لمنطق تلك الفئة التي جعلته يرى ويعتقد أنه حق ، كل ما تريده الجماعة أن يراه ويعتقده حقا ، وأن يجافي ما تجافيه ويعتقده باطلا .

ومن ثم يُحد من قدرة تلك العقول ومن فاعلية تفكيرها ، إما نتيجة للطواعية الغافلة ، أو خوفا من إبداء الرأي ، لأن التصفية الجسدية عملت عملها في القضاء على ذلك الفكر ، وبذلك تكون قد أخلت الساحة منه ولو إلى حين .

وبعد أن تم لهم ما أردوا عادت الجماهير إلى ملاذها الخرافي الآمن تحتمي به ، ولا يزال لديها الاستعداد للبقاء داخل ذلك الملاذ بسبب ما مضى من أمرها ، فما زالت تعاني من خوف مزمن مما تجهل حتى في هذا العصر النير.

ومـا جـرى بعـد ذلك كنتـيجـة لذلك الخـوف ، هو تخـريب كل مـا يتـرتب على الحـرية من عـلاقـات فـكرية سليـمـة بين الأفـراد والجـمـاعـات فـأدخلتنـا المصـالح المتضـاربة في دهاليز مـظلمـة مـا زلنا نعـاني من تعـثـر خطونا فيها ، وليس ما ينبئ بانفراج قريب.

وقد لا تكون تلك المصالح ذاتية بحتة لفـرد بعينه ، ولا تكون منضـويـة في تداخل عـجـيب مـع مـصلحـة مـجموعـة من الناس أو مـجتمعـات ، ولكن الأشد ضـررا عندما يكون ذلك الخلاف مع دول ترسم مسارها بالقوة للوصـول إلـى مـا تريد ضـد من ينازعـهـا على خـلاف إيديولوجي مع دول أخرى ، فقد كاد ذلك يدخلنا حـربا نووية مهلكة لا تبقي ولا تذر في أثناء الحرب الباردة .

ولكي يفهم ما نرمي إليه نعرض مثالين لموضوعين ، الأول ، ما يجرى بين الدول عندما تحاول أقواها تغيير المسـار الفكري لدولـة مـا ، تغـيـيـرا يتـوافق مع خـدمـة مصالحها ، فقد يتم ذلك بتشجيع منهاج فكري يحمل مـا يحمل من الوهم علـى الرغم من بعده عن قناعتها لإخضاع الدولة المستهدفة لما يراد منها .

وللتوضيح نأتي بهذا المثال الذي يعرفه الجميع وهو مـا حـدث لإحـدى دول الشـرق اوسطيـة المتـاخـمـة للمعسكر الشيوعي قبل أن ينحل شذرات من دويلات ،

فقد دُعمت هذه الدولة بالسلاح والعتاد من قبل أرباب المصالح السياسية بغرض أن تكون حاجزا حاميا لأي خطرآت من ذلك المعسكر حتى غدت تلك الدولة قوة ضاربة ليس مثلها قوة في تلك المنطقة من العالم ، مما دعا إلى تسميتها (بشرطي) المنطقة التي توجد بها ، ومن ثم قامت تلك الدولة بفضل تلك القوة ببدء فرض هيبتها وهيمنتها ، ليس على من هو أضعف منها فحسب ، إذ لم يكفها ذلك ، فقد حاولت التمرد على من صنعها ووضعها في ذلك الموقف القوى ، فبدأت تساوم على مطالب كان من المفترض كدولة مصنوعة القوة إلا تطالب بها خصوصا من أولئك الذين زودوها بتلك القوة .

لعلها فعلت ذلك بسبب أنها تجهل بعضا من لعبة المصالح ، أو ربما لما اعتراها من غرور ، فأرادت أن تأخذ موضع قدم من موازنة القوى في العالم ليس لقدرتها فيه ، بل لما اعتراها من سوء التقدير .

فسعت إلى مشاكسة من قادها إلى ذلك الموقع فبدأت أول ما بدأت في مغازلة المعسكر الشيوعي ، وحاولت فرض شروط للعبة جديدة تقوي بها مركزها مما قادها في النهاية إلى ثلم شوكتها ، ليس بوساطة حرب معلنة فحسب ، بل بحرب أيديولوجية ضروس معاكسة

لاتجاهاتها الفكرية بزاوية مفتوحة إلى نهايتها ، مما ادى بها إلى النكوص على أعقابها مرحليا إلى ما كانت عليه بمئات السنين ، وكأن تلك الحضارة الحاضرة التي كانت تتمتع بها والتي كان يتوقع لها الازدهار في المستقبل القريب والبعيد أدى بها ذلك وكأنها لم تكن ، بعد أن جُئ بفكر مضاد لتوجهاتها الحضارية السابقة.

بل لم يكُتف بذلك إذا بعبما عمل بتلك الدولة ما لم يعمل بغيرها ، لم يفهم سادتها الجدد لغز اللعبة ولم يتقنوا ما يراد منهم من خدمة المصالح لتلك القوى العظمى التي أتت بهم إلى سدة الحكم ، أو ما يراد منهم من تسديد (قوائم) الوفاء لمن ساعدهم على تقوية مراكزهم ، فلم يخضعوا لهذا المفهوم ، وقد صدقوا بأنهم انفسهم من حفز تلك التيارات الفكرية ذات الأصول السالفة ، وان تلك التيارات هي من يسر لهم الصعود إلى أماكنهم ، فكان من نتيجة ذلك أن اخذوا ضربات قاسية مدمرة على أم رؤوسهم ، في دخولهم حربا طويلة مهلكة دبرت لهم فأتت على الأخضر واليابس مما لديهم ، وما زالت طلائع لحرب قادمة تأخذ هبتها لتقضي على البقية الباقية مما يملكون من تلك القوة أن لم يعتبروا بما مضى.

وليس ببعيد عن الأذهان ما يسمى بالحرب الأولى للقرن الجديد من الألفية الثالثة على ما تفعله

الأيديولوجيات المتعارضة من تدمير في سبيل خدمة مصالح القوى الأعظم .

أما المثال الآخر لجماعتين في العالم الإسلامي يكوّنان كتلة بشرية في كل مكان منه ، ويعتنقان وجهتي نظر متعارضتين تمثلان جدليتين متناقضتين ، وكل جماعة منهما ترى مصلحتها فيما تتبناه من وجهة نظرها ، وبموجب ذلك التناقض الذي يكتنف أفكارهما ويفرق في الآراء بينهما ، و جدلية أي منهما تمثل مع الأخرى وجه لعملة واحدة يستحيل تطابقهما ، أو إمكانية لصق وجه أي منهما بالوجه الآخر مهما حاولنا .

فحين ترى إحدى تلك الجماعتين أن أمرا من الأمور مجافي لكل حق من وجهة نظرها الخاصة ، تراه الأخرى العكس من ذلك تماما من وجهة نظرها الخاصة أيضا ،

وعندما نقلب أيّا من الوجهين فسوف نرى نظرة كل طرف تتجه إلى المصلحة الخاصة به ، واضعا لها جدلية تحقق مرامه فقط ويدعو إليها باستماتة ، ويفعل الطرف الثاني ما يفعله الطرف الأول في سبيل محو الوجه المناهض له ، على الرغم من أن المنفعة العامة قد تتمثل بتطابق وجهي تلك العملة لخدمة تلك الكتلة البشرية .

وحينما نستغرق أكثر في تفحص وجهتي النظر سنرى العجب العجاب من حجج أصحاب الجدلية الأولى والأخرى على حد سواء ، ولكي نقترب من المعرفة أكثر فيما نريد أن نوضح ، علينا تبين إطارين فكريين متضادين أشد التضاد ، كل واحد منهما يضم منحا فكريا متباينا ومعاكسا فيما يتخذه من أفكار يخالف بها الآخر، وبينهما من التناقض ما بين الليل والنهار ، أي أنه يستحيل أن يلتقي هذان الخطان الفكريان المتوازيان أو يتطابقا على الإطلاق ، ولكن يمكن أن يتعايشا في إطار من الحرية والديمقراطية .

نتخذ هذين المثالين للقياس عليهما كجدليتين قائمتين بين طرفين متناقضين ومختلفين ، يسيران كخطين متوازيين باستقامة توجههما غير القابل للانحناء للالتقاء بالآخر ، ونترك ما عداهما من الاطروحات الفكرية لكثرة تشعباتها .

ذينك المثالان هما التيار العلماني المتطرف والتيار الأصولي المتطرف للدين كلاهما يؤثر فينا تأثيرا بدرجة ما ، في أي مكان من العالم ولأي معتقدات كانت ، ولكننا هنا نعني من يمثلهما في مجتمعات مثل مجتمعاتنا كمعطى واقعي في عالمنا الثالث ، أو النامي عندما نريد تحسين القول عنه .

وسوف نفترض أن ذينك المثالين هما وجها تلك العملة الواحدة ، وكل وجه منهما مسخر لخدمة المصلحة كل فيما يخصه من أجل القائمين عليه ، ولكن إذا نظرنا إلى الأكثر عمقا في تأثيره والأقدر في جلب الأغلبية له سنرى أنه الجانب الأصولي المتطرف ، عندئذ يدعونا إلى الظن أن وراء الأكمة ما وراءها ، ولكن سرعان ما نكتشف أن ما يختبئ وراء تلك الأكمة أن هو إلا ناتج من عنف الضغط الممارس على من لا ينصاع للأمر المفروض فرضا قسريا باستعمال القوة للقبول به ، وأنه لو ترك الأمر للاختيار الحر لما حصل على مثل تلك الوفرة في المؤازرة النادرة المثال.

إذن سنبدأ بالوجه الأكثر تأثيرا والمتمثل بذلك التيار المتطرف كمثال أول لشدة جاذبيته في جلب ذلك التأييد كما أسلفنا ، وسوف نرى المبدأ الذي يحتج به ناسه للإمساك بزمام الأمور وهم قادته الأصوليون ، وهو المبدأ القائل ، إن ثمة ثوابت لا يصح ترك حرية الفكر المعلن لمن يناهضها أو يناقضها كيلا تمس حرمتها ، ويتعين إلا يدع الأمر لكل من أراد المناقشة لمعطياتها ، كما يترك الحبل على الغارب ، فهذه الأمور المقدسة يجب أن تكون في منأى بعيدة جدا عن التداول كيلا تتعرض إلى الابتذال ، ولذا يتوجب أن يلجم كل قول قد يحاول أن يشير بما يلمح مجرد تلميح لأي

توضيح أو تساؤل بما لا يتماشى مع قوة اليقين الواجب إبداؤها نحو هذا المعطى القدسي ، حتى لو كان أبدأ ظاهريا لأنه من الواجب تقديسه ، وعليه فسيجبر الناس على احترامه حتى لو أدى الأمر إلى استعمال القوة المرهبة ، فهي كفيلة بمن لا ينصاع بالتهديد ، فبالتنفيذ القسري يرضخ كل من كان يصرح بالعصيان ، وأن من يفعل غير ما يوجبه من إجلاله سوف يعرض نفسه لعقاب لا قبل له به ، سوف يوقع عليه وليس له من يصد عنه.

وعندما تنظر إلى واقع الأمر في مجتمعات كمجتمعاتنا سوف تتيقن أنهم قادرون على كل ما يهددون به فالسكين حادة النصل التي قد تغرز في أحشائك في أية لحظة مواتية .

اذن فقد أستعمل التضييق على العقول ، وتم قسرها إلى ما لا يسمح بالرأيين المتضادين ، كما لم ير له مثيل في الكثير من المجتمعات الأكثر تطورا .

وهكذا سد الباب حتى من قبل أن يوارب وأحكم اقفاله.

ولكن عندما اقفل ذلك الباب ، هل كان الإيصاد تاما على معطيات الفكر الديني الحق كما جاء أول مرة ؟

كـلا ، لقـد اقـفل من ذلك الجـانب ، وفـتح على مصراعيه من الجانب الآخر لأولئك القائمين على أمره بوصاية من انفسهم لتخويل أنفسهم ، فقد فتحوه بفكر يخدم اهدافهم مستغلين حرمته وتقديسه من الناس لصدّ اي ريح تفضح مخططاتهم بما لا يتوافق مع مصالحهم ، وقد اتخذوا من بعض معطياته المرنة لترويج أفكارهم والضغط على العامة للانصياع لما يأمرون به واستعملوا لذلك عظات شتى لك (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كوسيلة ذرائعية .

ومع ما في هذا القول من حكمة بالغة ، إلا أن استغلال البعض لهذه الحكمة استغلالا سيئا ، أمسى كالنسبة المتحركة ، تتبع هوى القائل ، فالمعروف ما يقدم لهم من خدمة تحلل لهم ما يريدون من نشر أفكارهم والدعوة لها ، يحققون من خلالها ما يشاءون من أمر أو نهي .

والمنكر لمن يعارضهم في توجهاتهم الفكرية التي ربما تتعارض معهم وتبعد عن لباب المسائل التي تخدم مصالحهم .

ولذا فقد حرم النبس على من يناوئهم بما يرونه في الدنيا والحياة من وجهة نظر مختلفة يصفونها بالمنكر ، على الرغم من أن الواجب ألا تصنف الأفكار من باب المنكر مهما بدا من شططها .

أما الفريق الثاني فإنه الوجه الآخر من العملة ، سنجده عند من يناهض أولئك في مصالحهم ربما من اجل مصالحه الخاصة أيضا ، وذلك الوجه هو من التيار العلماني الذي يتنكر دعاته لكل الأمور التي يأت بها خصومهم الأصوليين ، بناء لما لأصحاب هذا التيّار من طرائق التفكير الخاصة بهم ، التي خلاصتها أن فكرا يعقل لهو افضل من التسليم بفكر ينقل ، وأن شتان بين مصداقية أمر يرعاه العقل وأخر ترعاه العاطفة .

وسوف نرى فيما هو مجمل مما يبدونه في منهجهم العقلي الذي يقولون فيه بما معناه :

إن كل جامد هو ميت لا يتطور ، والحياة تبتغي التغيير دوما ، والتغيير لن يحدث إلا بالوصول إلى حقيقة يقينية بطرح أمور متحركة تثور على الثبات ولن يحدث ذلك إلا بالنقاشات الفكرية ومن ثم برهنتها بالطرق العلمية أو بالوسائل الاستقرائية كعلم بديل عن الأيمان المسلم به . أما تلك الاستدلالات التي تبنى على نظريات غير متينة كالتي تقول ، (أن لابد لكل مخلوق من خالق) ، لا تعطي دليلا لا يعتريه الشك ، لأنها مستقاة مما نتخذه من قياس على ما نصنعه نحن بأنفسنا على انفسنا من أمورنا الحياتية ،

مثل أن الباب يحتاج إلى النجار وصندوق الحديد إلى حداد والمنزل إلى بناء .

ولكن هذا لا يدلل إلا على أنها نتائج لبعض ما ندركه من أمور تتعلق فينا وحدنا ، تلك التي ليس في ميسورها الخروج بنا عن دائرة وجودنا الذاتي ، فهي ليست إلا تطبيقا على ما يحيط بنا من أمور نحن نصنعها بفعل خبراتنا ، وما هي إلا نتائج استدلالية حيث لا تقودنا إلا إلى أنفسنا ، ولذا لا تنفع في أخذ القياس عليها .

ولذا فإن هذه الأفكار الساذجة لا تدل على الحقيقة المطلقة أبدا ، فأمور الحياة الواسعة وما بعدها سعة من أمور الكون ليست هي ما نستطيع الوصول إليه بمحدودية قدراتنا الفكرية ، أن ثمة ما هو خارج عما ندركه ، وحتما فأننا لن نتوصل إلى حقيقته في وضعنا الفكري الآني.

ومع ذلك فأنه قد يمكننا معرفة الحقيقة الكبرى بمتابعة التفكير ، ومن ثم الوصول إليها بتقدم العلم ونمو طرائق العمليات الذهنية ، وإلى أن يحين ذلك الحين يتعين إطلاق حرية التعبير ، فكلما أسرعنا بذلك قصرت مسافة الوصول إلى الحقيقة ، وإلا فستقف بنا الحياة متجمدة عند ثوابت ميتة تقودنا إلى الانحدار.

إذن فنحن نحتاج إلى اليقين الكامل ، إذا أريد منا تطبيق ما يدعوننا إليه من الإيمان ، وحتى نصل إلى ذلك اليقين عليهم أولا أن يفسحوا الطريق للرأي الأخر لكي نتعرف عليه من مداومة التفكير وحرية التعبير ، قبل التزعم لقيادتنا ، وبما أنه ليس في ميسورهم ذلك ، فهم أعجز من أن يعرفوا الحقيقة ، إذن لن ينالوا غرضهم منا إلا بالتضييق على العقول ، وجعل لا سبيل إلى الحرية الفكرية حتى بين المرء ونفسه لو استطاعوا .

إذن ما يفعل بالناس ليس مجرد اختلاف في الرأي ، إنه منهج مرسوم لغاية مصلحيه يرومون تحقيقها .

وإن الدعوة إلى نظرية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وتطبيق الحدود على من لا يلتزم بأمر من يقود ذلك المعروف ليس الغرض منه تطبيق منهاج لحياة مثالية خالية من الشوائب ، تلك الشوائب التي تعيق نمو المجتمعات وسيرها الحثيث نحو المزيد من الحضارة ، من باب المبدأ إن الدين هو وحده القادر على حماية الحياة من الانحرافات السلوكية وأن العبادات هي الهادية إلى الطريق القويم وأنه من دونها لن تقوم قائمة لحياة البشر ، فهذه المقولة ما هي إلا أكذوبة يتذرع بها لإحكام القبضة الحديدية على أفئدة الناس مستغلين عواطفهم تجاهه ، إذ إن الكثير من الدول

المعاصرة لا تستخدم الدين في واقع حياتها ومع ذلك تعيش في خضم الحضارة.

لأن الذي يحمل عبء الأهمية في خدمة الحياة أكثر من الآخر ، هي الأمور الأخلاقية وليست الأمور الدينية ، إذا كلما ارتقى عقل الإنسان ارتقت تبعا لذلك مزاولته للحياة .

فمن المؤكد أن السلوكيات الجيدة تعتمد بذلك على أسانيد من الأخلاقيات ، تلك التي في مقدورها القيام بذاتها دونما سند ديني يدعمها ، والدليل على ذلك انه لا يمكن أن تكون متدينا من دون أخلاق ، ولكن يمكن أن تكون أخلاقيا من دون دين ، والشواهد على ذلك كثيرة ولا تستدعي إيراد البراهين .

وبما أن الأخلاق سابقة على ظهور الديانات ، إذن فهي الأساس في بناء الحضارات وتقدم المجتمعات ، وما مجيء الدين فيما بعد إلا كعامل مساعد معزز للأخلاق ، ومن البداهة أن أصول الأشياء أقوى من المساندة لها .

إذن ليس من المهم أن تكون متدينا ، ولكن من المهم جدا أن تكون أخلاقيا ، وإن كنت دينيا أخلاقيا فهذا شأنك ، وأنه لن يهمنا من شأنك سوى ما تنطوي عليه أخلاقك من قيم تقود تصرفاتك إلى الأفضل ، لأنها وحدها التي سوف تحمينا منك ،

اما فرضائلك الدينية سوف تحميك وحدك ، ولذا سوف نتخلى عنك إن كنت دينيا لا أخلاقيا ونحن معك حتى لو كنت أخلاقيا فحسب .

ثم إنه لو كان التصارع الفكري نتيجة لاختلاف حقيقي في وجهات النظر بيننا وبينهم ، لكان ذلك يصح من وجهة نظرهم ، كما يريدون أن يروها على الأقل .

بيد انه لن يجدي نفعا إذا كانت المسائلة غير ذلك تماما، وهم يعرفون انها غير ذلك تماما وأن ابدوا للكثيرين ما يخالفها .

إن كل ما نعانيه من تضييق على الأفكار ليس بدافع من الحرص على نجاتنا من النار، ولا بغرض إدخالنا معهم إلى الجنة.

ومع ذلك فأن معظم التابعين لأولئك الأصوليين ذوي التطرف مدعين و بعيدا عن أذهانهم لما سيلاقونه بعد موتهم ، وأن ما سوف يصيبهم خارج عن حدود إدراكهم للأمور .

وكل منهم غير أكيد وباله خال من الجدوى التي قد ينالها ، ولا يعلم لما سيكون عليه مصير أي من الناس ، فالعقدة لديهم أكبر من الخوف من مغبة يروها مجهولة ، كما يروي البعض في مجالسهم الخاصة

وإنما الغرض مما يفعل لا يعدو كونه الرغبة في فرض الوصاية على ما يداخل عقول الناس من افكار ، وهو غرض مخالف لما يعلن ، وعندما تتاح لأي منهم القوة لن يتردد في فرضها حينما يريد أن ينال غرضا لا سبيل له إلا باستعمالها ، فيجعل لا سبيل إلى الحرية الفكرية إلا بالتعبير عن رأيه وحده ، وحجرها على الناس أجمعين ، بل لو استطاع لفعل ذلك حتى بين المرء ونفسه.

هذا ما تسمعه من كِلا الطرفين .

وفي مثل تلك الحالات حينما تستمع إلى هذه المناحي الفكرية التي تثير مثل ذلك الجدل ماذا يتعين عليك فعله ؟ ، هل يتعين عليك قمعهم فكريا ؟

كلا ، فإنه حينما نشأ الاعتراض عليهم ، في حالة مخالفتنا لتوجهاتهم ، أن نواجههم بما نحمله من فكر معارض دون محاولة اللجوء إلى قسرهم على الرضوخ إلى ما ندين به من أفكار بوسائل القوة الرادعة ، وإلا يتعدى الأمر بين أي من الأطراف إلى ما يتجاوز من أفعال قسرية ضاغطة ، وان فعل أي طرف فإنه لا يفعل ذلك إلا بغرض مصادرة ما للآخر من رأي خشية تأثر الآخرين به ، وهذا ليس دليل قوة بل هو دليل عجز عن القدرة في إبداء ما يبرهن ويدلل على ما له من حجج أن كان يمتلك الحق فيها. ثم من ذي الذي في مقدوره

الفصل في ترجيح الصواب ، عدا ما تنتخبه الحياة من افكار لخدمة نفسها .

وإذا نظرنا إلى الواقع البشري ، نجد أنه من الصعب صعوبة حقيقية تطابق وجهات النظر حول أمر من الأمور ، ولذا وضعت الدساتير وسنت القوانين للاستناد عليها في تقريب الآراء المتباعدة والاتفاق عليها ، فإذا كانت تلك القوانين ديمقراطية أفسحت مجالا لذلك الاختلاف ، والذي مهما يكن لابد من أن يكون به إثراء للحياة البشرية . ولتلافي الصدام بين تلك المواقف الصعبة فلابد من أن يفسح لكل طرف وما يفكر به ، وحتما ستكون الغلبة لمن يحتكم إلى حجة قوية .

ولذا فإن المهم في الأمر كله أن ليس من الحكمة من اي من الطرفين منع الآخر من إبداء رأيه ، بناء على أنه ليس في مقدور المؤمن إدخال الملحد إلى الجنة قسرا عنه ، فهو أن أعلن الانصياع صاغرا إلى ما يريده الطرف الأول فما هو إلا إعلان ظاهري باطل النية تجاه ما يدعونه إليه.

كما أن الملحد ليس بقادر على اقتياد المؤمن معه إلى النار على الرغم منه ، طالما أن له عقيدة راسخة لا تهز فيما يفكر فيه .

وحـتى لـو لم تـكن هنـاك غلبـة لطرف عـلى الـطرف الآخـر ، كـمـا هي العـادة في أغلب السـجـالات الفـكرية فلنرض بأن لهم رايهم ولنـا رأينـا .

لأن في مـثل هذه الأمـور يصـعـب الفـصـل بين طرفي النزاع الفكري إلا بوجود طرف محـايد تخضع له جميع الأطراف ، وغـالبا لا يوجـد مثل هذا الطرف المحـايد في مـسـائل الـراي والفـكـر، فـغـالبـا مـا يكون المفكـر راسخ العـقيـدة لا تنـازعه الفكـرة ومـا يضـادهـا إلا حـينمـا يكون في حـالة مـخـاض لم تتـضح له الرؤية بعـد ، وفي مـثل هذه الحـالة مـن التـفـكيـر لا يؤخـذ به ولا يعـتـد لشـأنه ، أمـا بعـد حـالة ولادة أفكـار واضـحـة تتـبين من خـلالهـا الرؤيـة التي عـلى المفكر أن يتـبـع مـسـارهـا ، نـرى أن كل طرف من أطراف الجدليات المتضادة متمسك برايه لا يريد التـزحـزح عنـه قـيـد أنمله ، وأن كـان صـاحـب حـجـة أضعف في منظار الحقيقة .

وبناء عـلى أن افكـار كل طـرف لابد أن تكون مـتـغـلـغلة في دخـيـلة نـفـسـه وأن مـنعنـاه من إبدائـهـا ، فكـل من الطرفين لن يتـأثر بقـول الأخـر عليـه ، أن لم يسـتـعـمل مـعـه قـوة فـعليـة تسـلطيـة ضـاغـطة تمنعـه من إبداء الرأي، ولكنها في الحـقيقة لـن تمنعه عما يفكر فـيه إلا منعا ظاهريا ، ففكره سيبقـى ملازمـا لـدخيلته في كلتـا الحـالتين ، هذا مـا سـتكون عليـه حـاله ، أن لم نسـتطع

إقناعه بما يقارع حجته الفكرية بحجة يتبين من خلالها خطل ما كان يراه .

إذن لا فائدة ترجى من فرض هيمنة فكرية على كل من يمتلك آراء مخالفة لما نملكه نحن ، وإنما المعالجة الحقة هي ما يجب السعي إليها ، أي يتعين أن تأتي الغلبة من واقع منطق جدلي حقيقي يكون بمقارعة الحجة بالحجة ، والرأي بالرأي ، يسفه بعدها كل من لا يمتلك برهان الحقيقة التي يجب أن تكون بادية لكل ذي عقل .

ويتعين ألا يتعدى الأمر بأية حال إلى ما يتجاوز الحوار إلى أفعال قسرية ضاغطة ، وإن فعل أي طرف ما يؤخذ عليه ، فأنه لا يفعل ذلك إلا بفرض مصادرة ما للآخرين من حق إبداء الرأي ، وذلك خشية وخوفا من تأثير آراء الخصم عليه ، وهذا دليل عجز عن القدرة في ابدأ الحجج المنطقية حتى وأن كان يمتلك الكثير منها.

ولكن أنصار اتخاذ القوة الرادعة ضد كل من تسول له نفسه إبداء رأي معارض لما يرونه حقا ، لا يعبأون بما يقال، إنما المهم لديهم أن تمضي آراؤهم بالناس والحياة وأن تتم لهم السيطرة على مقدرات الأمور ، وليس المهم ما يفكر فيه الآخرون عنهم .

وهنا ترد أسئلة أخرى ، لما الخوف ؟ مادام لدينا ما

نتذرع فيه من حجج ، فلماذا نحن خائفون من مواجهة الرأي الأخر ؟.

لماذا لا يصد الرأي بما يناقضه من وجهة نظر معارضة وليس بأي طريقة من وسائل الإرهاب البدنية ، أي بمعنى قل ما تشاء ، ودع الآخر يقول ما يشاء ، ثم دع حكم التصويب لمن له عقل ممحص ، وبنفسه ومن دون أي من وسائل الضغط سوف يتبع ما يرى أنه افضل الرايين ، أما من كان سفيها فهذا شأنه ، فلن تقومه قوانين الدنيا ولا دساتيرها إلا تقويما ظاهريا ، وحين يأمن على نفسه يبدو على ما هو عليه محققا القول ، فقد خلق بالسفه من كان سفيها وبه يموت .

والإنسان الطبيعي هو ذلك المتعارف على سويته ، وبما أن هذا ما هو عليه غالبية الناس إذا تركوا على سجيتهم وفي حالتهم الاعتيادية ، لذا ستكون الغلبة دائما لمن يمتلك الرأي الحق اعتمادا على ما له من قوة عقلية تجعله مدركا لما ينفعه ويقنعه من الأمور .

غير أن أولئك الأصوليين في اتخاذهم لتلك الطرق لا يوجدون حلا معالجا بصورة جذرية لما يرونه من مشكلات من وجهة نظرهم وذلك لخلو الوفاض مما يمتلكون من المنطق الحق ولذا فأنهم يلجون إلى الحلول باستعمال بالقوة ، غير أنها ليست إلا حلولا

كـابتـة يمكن الخـلاص منهـا في أية لحظة مـواتيـة ، وسوف يخسرون في النهاية.

ولذا يتعين علينا ، ألا نخشى انقياد أناس آخرين إلى من يخالفنا ، وتبعيتهم إلى أي اتجاه مضاد لنا ، لنترك كل ما يراه مناسبا له.

بل الأكثر من ذلك ، كم ستكون الحياة مجدية لو كان في قدراتنا التخلي عن النزعة الاستبدادية تخليا طوعيا ، فنسلم بأنه من حق الآخرين أن يمتلكوا وجهة نظر تخصهم وإن كانت مخالفة لما نملكه ، أو معاكسة لما نراه من وجهة نظرنا ، فنقر بحقهم فيما يمتلكون من وجهات النظر المختلفة فيما يرونه وما يتبعونه بمحض إرادتهم الحرة ، من معلومة أن الناس لن يتأثروا إلا بمن احسن التفكير، بسبب أنهم ليسوا في حالة عته جمعي ، وأن لهم من العقول المدركة ما يجعلهم قادرين على التمييز ما بين غث القول من سمينه.

وحتى أن لم تكن لهم تلك الامتيازات العقلية ،

فنحن لسنا أوصياء على البشر، وما يداخل نفوسهم . فنحن في النهاية لسنا مخولين ولا في استطاعتنا فرض وصاية قسرية على عقول الناس ، وأن فعلنا لا نستطيع تنفيذها عليه إلا تنفيذا ظاهريا.

ومن منطلق آخر انه لابد من أن ندرك ، أن من يقسر الناس بالقوة الفعلية على التبعية له ، لهو اضعف الناس حجة منطقية .

والكلام موجه إلى من بيده تكميم الأفواه وكسر الأقلام بما لديه من سلطة وجدانية على عقول الناس او سلطة بدنية باستعمال القوة الإرهابية .

اما من لا يلم بمدخلات كل تلك الأمور فإنه يتساءل في دهشة

لماذا لا يتصدى ضمير المثقفين منا لحل مثل هذه المشكلات فيشرعون أقلامهم دفاعا عن حرية التعبير ضد من يكبلها ؟

والجواب سهل وميسور وهو : من لا يريد ذلك ؟

ولكن الواقع ينبئنا بأن ذلك التصدي المطلوب عصيّ عن التطبيق لوجود تلك الحلقة المفرغة ، فلكي نحصل على الحرية التعبيرية فعلينا فك القيد من معصمها ، وحتى نفك ذلك القيد يتعين علينا الحصول عليها ، أي على الحرية ، إذن فالحلقة الدائرة تدور بنا بعجلة ذلك النير من عامل المصلحة الذي يأتي بزخم أقوى من القدرة على المقاومة التي عليها المثقفون للصد الرادع ، خصوصا والصفوة منهم قله لا يعتد بها بالنسبة للكثافة العامة ، والتي كانت في البداية على

اهبة الاستعداد للانقياد لتلك الصفوة فيما تريده من مصلحة الوعي العام ، إلا أن انبراء عامل الفكر المضاد لها مسلحا بالخرافة والوهم ، للعمل لما يريده أرباب المصالح من ترسيخها في عقول الناس ، وهم الأكثرية بطبيعة الحال فقد أدى بهم الأمر إلى ذلك التأثر السلبي ، لتقف الجماهير بعد ذلك موقف المعارض تجاه أي تغيير .

ثم إنه حتى أن كان أحد الرأيين نابعا من قناعة صاحبه، وظاهر لنا معرفة ما يبطن من ذلك الأمر ، أي انه غير مرتبط بعوامل مصلحيه ، وأن لصاحبه ما يعذر به لاعتناقه إياه ، فهذا في الوقت ذاته لا يبرر له عسف الآخر على اعتناق ما يدين به من أراء عن طريق استعمال القوة الجبرية وإخضاع العقول إلى ما يريد .

ولا يقتصر الأمر على مثل ذينك المثالين فحسب ، فالأمثلة عديدة على ما تستطيع المصلحة من استعمال القوة والسلطة التي تفرضها دائما على العقل الجمعي من اجل استخدام هيمنة فكرية لموضوع ما قد لا تؤمن به . إنما المبتغى منه ليس سوى الوصول إلى تغيير ما في عقول الناس إلى ما يتناسب والمخططات الموضوعة ، ومن ثم جعل الجميع يلهثون في السعي وراء ما يراد

منهم دون أن يفطنوا بأنهم يقـــادون ابدا بأيادي أصحاب المصلحة ،

بيد أن تلك المصالح المخدومة والمعزز فرضها بكل تلك الوسائل ، هي حتما ليست المصلحة البشرية العامة كما ينبغي أن تكون عليه ، تلك التي لن تتاتى إلا من نبع الفكر الحر من عقلية صافية غير مقادة بنهج منفعي خاص ، وبالتالي فلن يمارس من أجلها اي من الضغوط سواء ما كان منها ماديا مباشرا ، أو منحى فكريا ممسوخا بالأوهام.

ولكن إذا أردنا القول الحق ، فلماذا نلقي باللوم على من يلتقط الفرص المتاحة ، لماذا لا نلقي بالعتاب على أنفسنا ، مادام معظمنا لا يفكر بما هو حاصل ، في واقعه الراهن ، ولا حتى بما هو متوقع ماذا ستكون عليه حياته في المدى المستقبلي القريب؟ فما بالك بالبعيد.

فمما نستقرئه من الواقع المنظور ، يقول أن أخطاءنا تكمن فينا ، فنحن كأصحاب سلطة يرعبنا فقدها وكشعوب فقيرة تشغلنا مكابدة العيش ، وتزيدنا رهبة العصا الغليظة مكابدة على مكابدة ، أما كشعوب غنية تتملكنا الدعة وحب الراحة وتستهوينا السهولة ، وبما أن الوفرة المادية تؤمنها لنا إمكاناتنا الزائلة ، فلماذا نصدع رؤوسنا بما يجب أن تكون عليه حياة البشرية

القادمة ؟ ولسان حالنا يقول ، نحن لا نريد إلا ما يقدم لنا جاهزا في الآن القريب ، لندع غيرنا يفكر عنا ، ليخططوا لنا مسارنا ، ويكفينا أن ننعم بالدعة والسكينة ، نحن غير مستعدين لمناهضة تلك الأفكار وتعريض ذاتنا لمخاطر مقاومتها ، إذن فصاحب السلطة قد يفقد سلطته وطالب الهدوء قد تقلق منامته.

ودائما عذرنا إن وجود تلك الهيمنة الفكرية المسيطرة والمرسومة في مسار معين ، معززة بقوة ضاغطة من الخارج لحماية فاعليتها ، وتقليم أظفار كل من تسول له نفسه طرح فكر مخالف قد يفتح آفاقا جديدة لا يراد لها أن تفتح ، لهي أقوى مما نحن عليه ، وأن أي محاولة لصدها قد يعرضنا لخطر المجابهة.

إذن سواء كان شعورنا بالمكابدة أو بالدعة والرغبة في الراحة فقد شلت قدرات الإنسان العادي في العالم النامي على التفكير الصحيح ، وكبلت السنة المفكرين عن النطق فأفسحت المجال للقوة الضاغطة لإنفاذ مصالحها.

ومحال أن يحدث ما يخالف ذلك في منظور الواقع القريب ، وربما لآماد طويلة .

ما الوسائل للخلاص مما يعوقنا ؟

والآن بعد عرض هذه الرؤية لما يمرّ بنا ، وبعد أن عرفنا ولو جزءا ضئيلا من تلك المعوقات فما السبل المتعين علينا اتباعها لتنقية الفكر الإنساني مما يشوبه ؟

في رأينا انه لا يمكن أن نتخلص منطلقين بعيدا عما يعوقنا إلا بكسر حلقات تلك السلسلة المثلثة الأضلاع ، التي تترابط بعدد لا يحصى من رموز الموجب والمحظور ، تلك التي تأتي بكثافة واحتشاد أسباب إعاقتنا ، بسبب ما تبثه من الخرافات والأوهام المؤازرة لها ، وان يُسمح بممارسة الفكر لذاته في مناقشه أمور نقاط تلك الموجبات والمحظورات بحسب أهميتهما من المقدرة على الحد من وعي الجماهير ، وما يراد تسيّده من الآراء التي تخيف الناس من مصائب عقابية وهمية فتخضعهم على التسليم بها رغما عنهم ، وتمنعهم من الجراءة على التفكير بما يخالفها حتى بينهم وبين أنفسهم ، وهذا بطبيعة الحال ما يهدف إليه المستفيد من تركيب تلك السلسلة ، وليس لنا من خلاص إلا في كسر حلقاتها لكي يسمح بحرية التعبير المطلقة .

وعلينا أن نجب أي فرض للوصاية على العقول ونجب تلك الحواجز التي تحول بيننا وبين ما نريد قوله .

ويقول آخر ، فإن محصلة كل ما قيل ، وباختصار شديد ، انه لا خلاص من تلك المعوقات ، التي تحد من نمو الأفراد فكريا ومن نمو الدول اجتماعيا ، إلا بالتخلص من إسار الوهم والخرافة ، وبذلك نقطع السبل على من يفيد من ازدهارها ، ولن يكون ذلك من المستطاع فعله إلا بإطلاق حرية التعبير الفكري ، حرية الراي والراي المخالف . وتوسيع نطاق الفكر ، بتوسيع قاعدته داخل النفس أولا ، من دون أن نحاول التأثير فيها من خارجها ، باستعمال ذلك الزخم من الأوهام .

أجل ، من الضرورة إطلاق العنان للأفكار المبدعة ، أو حتى المخالفة لما نعهده إن ذلك ليس بشعا ، ولا يؤدي إلى إثارة المخاوف والآلام ، إلا لمن لا يريد لتلك الحرية أن تنطلق .

وفي راينا بقول ثالث ،يتعين أن يُترك للعقل البشري سجيته الفكرية الطبيعية ، دون خوف أو خشية ومن دون تسلط بعضه على البعض الآخر لتنفيذ مصلحة ما تكون للفئة الأولى على حساب ما يضر في المصلحة للفئات الأخرى ومن دون أن يستعمل لذلك ما استعمل من التغييب الذهني للأفراد والجماعات ، على كافة المستويات ، بما يكاد يشمل البيئات العالمية منذ أقدم العصور ، من قبل أن يعرف الإنسان كيف يؤرخ لنفسه ،

وحتى عصرنا هذا ، ولو لم يفعل ذلك لربما أدى الأمر إلى تنامي حضارات بشرية ليست مسبوقة بمثيل ، لا تتسم بسمات ذلك الخط البياني المتعرج في الصعود والهبوط ، بخطوات متعاقبة في التقدم والنكوص عنه ، تارة في خطوات أمامية وأخرى تراجعية ، وكهذا دواليك في مزاولة أبديه متباينة في سرعة الصعود في مدرج الرقي والحضارة .

اجل ، ولو تركت للإنسان سجيته على طبيعتها ، لتتابع خطه البياني حتما في استقامة صاعدة دون عوائق تذكر .

بل ربما أدى به إلى التصاعد نحو الرقي في خلقته الطبيعية ، وليس إلى تحسين واقعه المعاش فحسب ، بل إلى تحسين كينونته البيولوجية التي تؤدي به إلى مزيد من التطور، وربما القرب من الكمال ، لعل وعسى أن يتجنب عوامل فنائه السريع .

والقول لأولئك الذين يرون أنهم على حق ، ومع افتراض أنهم صادقون في رؤيتهم تجاه ضمائرهم ، فإن الآخرين يرون في أنفسهم الشأن نفسه ، ولكن لأمر الصالح يرسخ نفسه وأن لم يؤازره أحد ، وما علينا إلا أن نعي أن كل عملية بناء لها وقودها ، وتترك وراءها مخلفاتها التي سوف يكنسها التاريخ ويلقي بها في إحدى مزابل النسيان وهو في عملية تصاعد رقيه.

ولذا فلا داعي للنزاع للقضاء على أصحاب الرأي المخالف ، حتى وإن كان على خطا ، فالحياة كفيلة به وهي في عملية غربلتها لما ينفعها وما يضرها من أمور ، وعلينا أن نعي أيضا أننا بجلب ذلك الشقاق على أنفسنا لا نعمل إلا على تأخير عملية انتخاب الحياة لما هو أفضل لنا.

وفي النهاية لا ينبغي علينا أن نستعرض المأساة فقط ، وإنما يتعين علينا أن نبحث عن حل لإزاحتها والقضاء عليها ، حتى مع معرفتنا المسبقة ، بأن الكثير من الناس لا يريد السمع وقد تعمد الصمم ، ولا يريد أن يرى وقد أغمض عينيه ، وبالتالي لن ينبس وقد فقد ذينك العضوين ، إلا أن أملنا أن تجد هذه الصرخة ، ولو ربع إذن صاغية ، ونطقا بعيننا مؤازرا على إبراز الحقيقة وإن كان متلعثما ، فأول الغيث قطرة .

وخلاصة القول ، أنه لن يتأتى خلاص البشر مما هم فيه من إعاقة إلا من نبع الفكر الحر ، فهذه زبدة القول ونهايته .

طيبة أحمد الابراهيم

١٦ / ١١ / ٢٠٠١

السيرة الذاتية للمؤلفة

- الاسم: طيبة احمد عبد الله الابراهيم ، اسم الشهرة طيبة احمد الابراهيم
الجنسية: كويتية- مكان الميلاد / الكويت
- العنوان: ص ب 68538 - الرمز البريدى 71956 الكويت - كيفان
تلفاكس: 00965/534/6513 - نقال / 7916902
- المؤهلات الدراسية:
دبلوم فى مادة الرياضيات البحته.
- التاريخ العملى:
من عام 1973-1886 مدرسة فى وزارة التربية لمادة الرياضيات البحته.
ومن عام 1968-1992 التفرغ للعمل التجارى فى مؤسسة (طيبة الابراهيم) للتجارة العامة والمقاولات.
ومن عام 1993 وحتى الان العمل فى وزارة الاعلام- مراقب الدراما فى تليفزيون دولة الكويت
- مجال الابداع الثقافى:
التأليف الروائ والكتابة الفكرية ، سواء كؤلف كتابى او مقالة صحفية او محاضرة .
- الآثار المنتجة :

١- «سعيدة» قصة قصيرة فازت بالجائزة الرابعة من وزارة الاعلام الكويتية عام 1979 .
٢- «مذكرات خادم» الجزء الأول من الرواية فاز بالجائزة الثانية من وزارة الاعلام الكويتية عام 1980
٣- حذار قد تقتل قصة سياسية قصيرة
٤- «الانسان الباهت» رواية من الخيال العلمى نشرت كسلسلة فى جريدة السياسة الكويتية عام 1983 ثم صدرت فى الكويت فى طبعتها الأولى عام 1986 واعيدت طباعتها فى مصر عام 1990 بترقيم دولى 977/266/059/8 وبرقم ايداع 2263 فى هيئة

الكتاب فى مصر، تنبأت باستنساخ الانسان قبل سبعة عشر عام من استنساخ النعجة «دوللى» عام 1997 ، كما حوت نبوءة عن عقم اطفال الانابيب ثبت صحتها فى دراسة امريكية نشرت خبوها جريدة الاخبار القاهرية عام 1999 .

٥- «الانسان المتعدد» رواية من الخيال العلمى اودعت المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب فى اوائل عام 1989 مع رواية «انقراض الرجل» ليقوم بطبعاتهما، ولكن لظروف الأزمة صدرت فى مصر عام 1990 بترقيم دولى 977/766/060/7 وبرقم ايداع 2264 .

٦- « انقراض الرجل » رواية من الخيال العلمى اودعت المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب اوائل عام 1989 لطباعتها ولك للظروف السابقة . صدرت فى مصر بترقيم دولى 977/266/060/7 برقم ايداع 2264 ، هذه الرواية تبين المردود السلبى لعملية الاستنساخ على الانسان ممايؤدى الى انقراض الرجل.

٧- «القرية السرية» رواية من الخيال العملى تعتبر احداثها فى مرحلة متوسطة ما بين «الانسان المتعدد» و«انقراض الرجل» نشرت عام 1999 رقم الايداع 11973 والترقيم الدولى 8-353-266-977 تكون مع الروايات الخيال العلمى الثلاث الانف ذكرها رباعية فى ادب الخيال العلمى.

٨- «مذكرات خادم» الجزء الثانى من الرواية صدرت عام 1998 مع الجزء الأول مع القصتين القصيرتين الأنفة الذكر بترقيم دولى 966/060/7 برقم ايداع 2264 .

٩- « ظلال الحقيقة» رواية من الخيال العلمى تختلف فى طرحها عن سياق الروايات العلمية الأربع. صدرت عام 1995 الترقيم الدولى 977/266/060/7 وبرقم ايداع 2264 نشرت فى مجلة الهدف الكويتية فى نفس العام.

١٠- «لعنة المال» اول رواية جرى بها قلم المؤلفة وعمرها لايزيد عن الثالثة عشرمن العمر نشرت عام 1998 فى مصر بترقيم دولى 977/266/060/7/ وبرقم ايداع 2264 .

١١- البلهاء رواية من الخيال الاجتماعى نشرت عام 1999 رقم الايداع 11973 الترقيم الدولى 8-353-266-977 نشرت فى جريدة السياسة فى نفس العام.

١٢- «الكوكب ساسون ، عالم مجنون » سادس رواية من الخيال نشرت عام 2003 .

١٣- «المعوقات الفكرية للشخصية السوية» كتاب رؤية فلسفية خاصة بالمؤلفة نشرت عام 2003 .

١٤. (القلب القاسى) ثانى راوية جرى بها قلم المؤلفة وهى فى الرابعة عشر من عمرها لم تنشر بعد.

١٥ . (أشواك الربيع) راوية كتبت فى فترة مبكرة من عمر المؤلفة لم تنشر بعد.

١٦. (دائرية الزمن) راوية من الخيال العلمى قيد التأليف.

. الندوات والمؤتمرات والمهرجانات والمعارض والملتقيات التى شاركت فيها:

جامعة الكويت عام 1980 ورابطة الادباء 1993-1999، وفى نادى التقدم العلمى 1993. منتدى أصحاب القلم 1997، وفى مصر عام 1991، مكتبة مبارك 1999 (أدب الخيال العلمى وتحديات القرن الواحد والعشرين) . نادى الصحفيين1999 . فى فندق سفير الدقى (مقومات أدب الخيال العلمى)2002 . وفى الولايات المتحدة فى مركز الحوار العربى فى واشنطن عام 1996 . فى سوريا عام 1998فى المركز العربى فى أبو رمانه

ثم فى تونس مهرجان سوسه الدولى عام 2001 حول (صورة الرجل فى أدب المراة العربية) قدمت فيه دراسة تحليلية مقارنة عنوانها (تطابق الصور فى متوازى الأعمال الروائية للمرأة والرجل).

كلها ابداعات فكرية.

. النشاطات الأخرى لقاءات تلفزيونية وإذاعية عديدة داخل الكويت وخارجها.

. الجوائز التقديرية:

جائزتين من وزارة الأعلام الكويتية فى عام 1979- 1980.

شهادات التقدير:

من المعهد العالى للتكنولوجيا فى مصر عام 1991.

من جمعية الخدمات الأدبية والفنية التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية فى مصر عام 1991.

من نقابة العمال فى الكويت عام 1998.

من مهرجان سوسة الدولى فى تونس عام 2001 مع درع وشهادة تقدير.

درع مهرجان الرواد العرب فى مصر ٢٠٠٢.

العضوية فى الهيئات واللجان المحلية والدولية:

عضو رابطة الأدباء الكويتية، واتحاد الكتاب فى سوريا، وعضو فى مركز الحوار فى أمريكا ونادى القصة فى مصر، واتحاد الكتاب المصريين.

تعتبر طيبة أحمد الابراهيم رائدة لأدب الخيال العلمى فى الخليج، إذا لم تظهر امرأة منافسة فى هذا المنحى من الكتابة فى كل العالم العربى.

ثم أنها أول امرة عربية، وربما عالمية تنبأت بعملية الاستنساخ على الانسان قبل تطبيقه العملى على الحيوان فى عام 1997 على النعجة (دوللى) بسبعة عشر عام وبهذا تكون لها الريادة ثلاث مرات فى كتابة رواية الخيال العلمى.

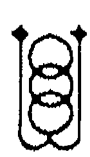
١. على الكتابة الروائية فى أدب الخليج.

٢. على أدب المرأة العربية.

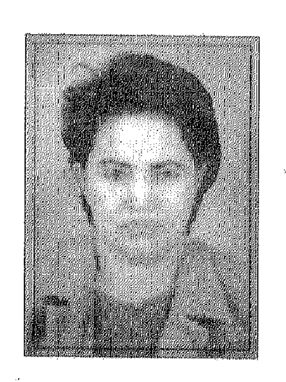
٣. وفى منحى الاستنساخ بالذات .

فهرس الكتاب

رقـم الإيداع ٢٣٥٢ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى .I.S.B.N



مطابع دار التعاون الحديثة للطبع والنشر



طيبة أحمد الإبراهيم

هذا الكتاب الفلسفي يجمع أراء متناثرة للكاتبة في مؤلفاتها الروائية العشر ففيه ينضوى كل ما أشارت إليه في تلك المؤلفات تلميحا أو تصريحا ، والتي تعتبرها المولفة معوقة للإنسان في مسيرته نحو الرقي المتكامل .

